هيرمان هسّه

أحلام الناي

روايات جائزة نوبل

10

ترجمة محمد فؤاد عطا الله

الدار المصرية اللبنانية

أحلام الناى

FLOTE TRAUME

هيرمان هسّه

نوبل عام / 1946

ترجمة محمد فؤاد عطا الله

روايات جائزة نوبل

10

روايـــات جائــزة نـوبــــل

سلسلة تصدرها

الدار المصرية اللبنـانية

المـــديــر العـــام : **محمد رشـــاد**

رئيس التحـريـــر : **فتحى العشرى**

الإعداد والصياغة : **محمد فتحـى**

---

16 شـارع عبـد الخالق ثروت . تليفـون : 3910250 . فاكس : 3909618

ص.ب 2022 . برقيا دار شادو . القاهرة

E - mail:info @ almasriah. com

WWW . almasriah . com

رقم الإيداع : **97 / 5822**

الترقيم الدولى : **2 - 357 - 270 - 977**

جميع حقوق الترجمة والطبع والنشر محفوظة للناشر

الطبعة الأولى : محرم 1418 هـ ـ مايو 1997 م

الطبعة الثانية : ذو القعدة 1424 هـ ـ يناير 2004 م

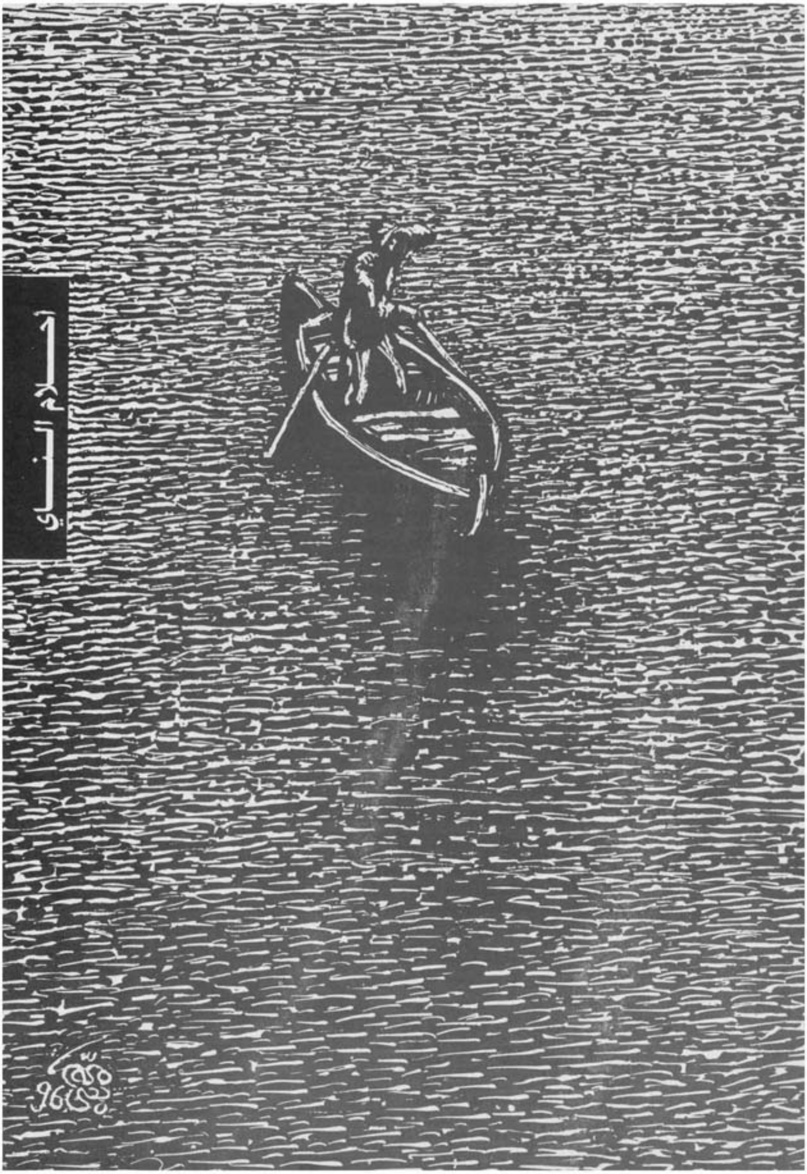
أحلام الناي

احـــلام النــاى

أبى قال لى وهو يناولنى نايا صغيرا من العاج :

«إليك هذا . . خذه ولاتنس والدك العجوز عندما تسرى عن الناس بعزفك فى بلاد غريبة . . فلقد حان الوقت لكى تشاهد العالم وتكتسب المعرفة . فأنا طلبت صنع هذا الناى لك ؛ لأنك لاتحب عملا سواه ، ولايطيب لك إلا أن تغنى دائما ، ولكن تأكد دائما أنك تختار الأغانى المشرقة المرحة ، وإلا فستكون الهبة التى أودعها الله فيك مدعاة للأسف . » كان أبى العزيز لايفهم فى الموسيقا إلا قليلا ، وكان من رجال العلم يعتقد أن كل ماينبغى أن أفعله هو أن أنفخ فى الناى الصغير اللطيف ، ولايزيد الأمر على ذلك . ولم أكن أريد أن أبدد وهمه ؛ ولهذا شكرته ووضعت الناى فى جيبى ، وشرعت فى الرحيل .

وكان وادينا مألوفا لى حتى طاحونة المزرعة الكبيرة ، وهكذا كان العالم بالنسبة لى يبدأ بعدها . وقد سرنى هكذا كثيرا . واستقرت نحلة أجهدها الطواف على كمى ، فأخذتها معى حتى يكون لدى فى أول مكان أستريح فيه رسول أستطيع أن أرسله إلى البيت حاملا تحياتى .

ورافقتنى الغابات والمروج وأنا سائر فى طريقى ، وكان النهر يجرى مرحا

إلى جانبى ، ورأيت أن العالم لا يختلف إلا قليلاً عن بيتى . وكانت الأشجار والأزهار ، وسنابل القمح ، وآجام البندق المتشابكة تتحدث إلىّ ، فكنت أردد معها أغانيها ، فتفقه عنى كما كانت تفقه فى بيتنا ، إلا أن الغناء أيقظ نحلتى ، فزحفت متمهلة حتى بلغت كتفى ، ثم طارت فى خط مستقيم ، وانطلقت كالسهم عائدة صوب البيت .

وهنا خرجت من الغابة فتاة صغيرة تحمل سلة علي ذراعها ، وتضع على رأسها الأشقر قبعة عريضة من القش لتقيها من الشمس .

قلت لها : « سبحان الله ! اين تذهبين ؟ » فردت علىَّ قائلة وهى تسير إلى جوارى : « إننى أحمل لرجال الحصاد غذاءهم . وأنت ، أين تذهب اليوم ؟ »

«أنا ذاهب إلى العالم ، كما أرسلنى أبى . فهو يعتقد أن من واجبى تقديم حفلات على الناى ، ولكننى لا أدرى حقا كيف يكون ذلك ، إذ ينبغى لى أن أتعلم أولا . »

« هذا حسن . . ولكن ما الذى تستطيع أن تفعله حقا ؟ على كل إنسان أن يكون قادراً على فعل شىء ، أيا كان . »

- لاشىء بوجه خاص . كل ماأستطيعه هو أن أنشد الأغانى .

- « وأى نوع من الأغانى هذا الذى تنشده ؟ »

- كل أنواع الأغانى ، للصباح والمساء ، ولكل الأشجار والحيوانات ، والأزهار . الآن مثلا ، أستطيع أن أغنى أغنية جميلة عن فتاة صغيرة خرجت من الغابات وتحمل لرجال الحصاد غذاءهم .

- « أتستطيع ذلك حقا ؟ إذن ، هيا ، أنشدها على الفور ! »

- « أجل ، ولكن ما اسمك ؟ »

- « بريجيت . » أنشدت أغنية عن « بريجيت » الفاتنة بقبعتها المصنوعة من القش ، وبما تحمله فى سلتها ، وكيف أن الأزهار جميعاً تحملق فيها ، وزهرة اللبلاب الزرقاء فوق سور الحديقة تحاول بلوغها ، وكل تلك التفاصيل .

استمعت جيداً للأغنية ، ثم قالت : إنها جيدة . فلما أخبرتها بأننى جائع ، رفعت غطاء السلة ، وأعطتنى قطعة من الخبز ، فقضمت منها كسرة ، ثم واصلت سيرى مسرعاً ، فقالت : « لا ينبغى أن تجرى أثناء الأكل ، فليأت أحدهما بعد الآخر . » وهكذا جلسنا معاً على العشب ، وأكلت خبزى ، فيما طوقت ركبتيها بيديها السمراوين ، وجعلت تنظر إلىّ .

سألتنى بعد أن فرغت من أغنيتى : « ألن تغنى شيئا آخر من أجلى ؟ »

- « طبعا ، سأفعل . ترى ماذا يكون ؟ » -

- « عن فتاة هجرها حبيبها ، وهى حزينة . »

- « كلا ، لاأستطيع أن أغنى هذا . فلا أدرى ماسيكون عليه هذا الشعور ، وعلى كل حال لا ينبغى للمرء أن يكون حزيناً إلى هذا الحد . ومايبنغى لى إلا أن أغنى الأغانى المبهجة المرحة ، كما قال لى أبى . سأغنى لك عن العصفور أو عن الفراشة » .

فسألتنى : « إذن ، أنت لاتعرف شيئاً على الإطلاق عن الحب ؟ »

- « عن الحب ؟ بلى ، أعرف عنه أنه أجمل الأشياء جميعاً . »

وبدأت فورا ، فغنيت عن أشعة الشمس التى وقعت فى غرام زهور

الخشخاش الحمراء ، وكيف أخذت تداعبهن وهى فى أوج السرور . وعن عصفورة الحسون عندما تنتظر زوجها ، فإذا جاء طارت بعيداً وتظاهرت بأنها مذعورة . وواصلت الغناء عن الفتاة ذات العينين العسليتين ، وعن الشاب الذى اعترض طريقها ، وأخذ فى الغناء فكافأته بقطعة من الخبز ، يبدو أنه الآن لايريد مزيداً من الخبز ، وإنما يريد قبلة من الفتاة ، ويتمنى أن ينظر فى عينيها العسليتين ، وسيمضى فى الغناء ولن يتوقف حتى تبتسم وتغلق فمه بشفتيها .

فانحنت بريجيت ، وأغلقت فمى بشفتيها ، وأغمضت عينيها ، ثم فتحتهما ثانية ، فنظرت فى النجمتين العسليتين الذهبيتين ، اللتين أبصرت فيهما نفسى وبضعة من زهور الروض البيضاء منعكسة فيهما .

قلت : « العالم فى غاية الروعة ! وقد كان أبى على حق ، تماماً . والآن سأساعدك على حمل سلتك ، وسنأخذها معاً إلى أهلك . »

وتناولت سلتها ، وسرنا معاً ، وقد تناغمت خطواتها مع خطواتى ، وانسجم مرحها مع مرحى ، وتهامست الغابة فى لطف وانتعاش من أعالى الجبل ، لم أتجول فى حياتى بمثل هذا الفرح ، واستأنفت الغناء فرحاً حتى لم أجد بداً من التوقف نتيجة للفيض الغامر من الأغانى الذى تدفق على : من السهل والجبل ، من العشب والنهر ، ومن النجم والشجر ، ومن الهمسات والحكايات جميعا .

ثم وقفت أُمْعن الفكر : لو استطعت فى وقت واحد أن أفهم هذه الآلاف من الأغانى وأن أنشدها للعالم ، عن العشب والأزهار والناس والسحب ، عن كل شىء ، عن الغابات المورقة ، وأشجار الصنوبر ، وعن

الحيوانات جميعاً ، وكذلك عن البحار البعيدة ، والجبال ، والنجوم ، والقمر ، وإذا تردد هذا كله فى داخلي ، وغنّى فى الحال ، فسأكون قادراً على كل شىء ، وستحتل كل أغنية جديدة مكانها فى السماء بوصفها نجمة .

ولكن ، بينما كنت أفكر فى هذا كله ، هادئاً تمام الهدوء من الداخل ، تملؤنى الدهشة لأن مثل هذا الخاطر لم يطرأ على عقلى من قبل - توقفت «بريجيت » ، وأرجعتنى إلى الوراء بأن شدّت السلة من يدى .

قالت : « الآن ، ينبغى أن أصعد من هذا الطريق ، وقومى هناك يعملون فى الحقل ، وأنت ، إلى أين تمضى ؟ هل ستأتى معى ؟ »

- « كلا ، لا أستطيع أن أذهب معك ، ينبغى أن أخرج إلى العالم . شكرًا جميلا على الخبز يابريجيت ، وعلى القبلة . سأفكر فيك . » فتناولت منى سلة الغذاء وأطبقت بعينها علىّ مرة أخرى فى ظلها العسلى ، وتشبثت شفتاها بشفتى ، وكانت قبلتها من العذوبة والحنان بحيث حزنت من فرط السعادة ، ثم ودعتها مسرعاً ، وهرولت منحدراً فى طريقى .

وارتقت الفتاة سفح الجبل على مهل ، وتحت الأغصان المتشابكة لأشجار الخوخ عند حافة الغابة توقفت ، وشخصت ببصرها فى أثرى ، وعندما أشرت إليها ، ملوحاً بقبعتى فوق رأسى ، أومأت مرة أخرى ، ثم لم تلبث أن اختفت فى ظل أشجار الخوخ الساكنة كأنها مرسومة فى لوحة .

أما أنا ، فقد مضيت فى طريقى مستغرقاً فى أفكارى ، حتى إذا انعطف بى الطريق عند ركن ، انتصبت أمامى هناك طاحونة . وإلى جانبها كان يطفو زورق على صفحة النهر ، يجلس فيه رجل متوحد يبدو عليه أنه كان فى انتظارى ، ذلك أننى ماكدت ألمس قبعتى ، وأهبط من الشاطىء ، حتى

تحرك الزورق من فوره وانساب على صفحة الماء . وكنت أجلس وسط الزورق ، على حين كان الرجل يجلس فى المؤخرة عند الدفة . ولما سألته : إلى أين نقصد ؟ رفع رأسه ، وسدد إلىّ عينين رماديتين عليهما غشاوة .

قال بصوت منخفض : « حيثما تشاء . مع التيار إلى المحيط ، أو إلى المدن العظيمة . . لك الخيار . إنها كلها مِلكى .

- « كلها ملكك ؟ إذن ، فأنت الملك ؟ »

قال : « ربما . . وأنت شاعر ، على مايبدو . . إذن أنشد لى أغنية أثناء سفرنا هذا . »

فاستجمعت شتات نفسى . كان الخوف يملؤنى من ذلك الرجل المهيب ولأن زورقنا كان ينساب بسرعة فائقة وفى هدوء على صفحة النهر . غنَّيْتُ أغنية عن النهر الذى يحمل القوارب ، ويعكس الشمس ، ويرتطم بالضفاف الصخرية ، ويشعر بالسعادة حين يتم تجولاته .

وظل وجه الرجل خالياً من كل تعبير . وعندما توقفت عن الغناء ، أطرق صامتا كالحالم . وفجأة ، وأنا فى دهشة شديدة ، جعل هو نفسه يغنى، وكانت أغنيته عن النهر وعن رحلة النهر عبر الوديان ، وكانت أغنيته أجمل وأقوى كثيراً من أغنيتى ، إلا أن كل مافيهما كان مختلفا كل الاختلاف .

وفى أثناء أغنيته عن النهر ، اندفع النهر من التلال كالمقاتل المجتاح ، قاتما شرسا ، وبأنياب بارزة قاتل الطواحين التى تقيد حركته ، والجسور ذات الأقواس ، وكأنه يمقت كل زورق عليه أن يحمله ،وفى أمواجه وأعشابه الخضراء الطويلة كان يهدهد جثث الغرقى وهو يبتسم .

لم يبعث هذا شيئا من السرور إلى نفسى ، ومع ذلك كان صوته جميلا غامضا إلى درجة أصبحت معها مضطرباً تماماً ، فأخلدت إلى الصمت ، متلفعاً بحزنى ، فإذا كان هذا الذى يغنيه ذلك المنشد العجوز البارع بصوته المكتوم حقيقيا وصادقًا ، إذن كانت أغنياتى جميعا مجرد هراء وعبث أطفال . ولم يكن العالم فى قرارته خَيِّرًا مشرقاً كالرب ، بل قائم بائس ، وشرير محزن ، وعندما ينبعث حفيف الغابات ، فليس ذلك من الفرح وإنما من العذاب .

وواصلنا رحلتنا ، على حين أخذت الظلال تطول وتطول . وكلما شرعت فى الغناء ، بدا صوتى أقل ثقة بنفسه ، وازداد خفوتًا ، وفى كل مرة كان المنشد العجوز يجيبنى بأغنية تجعل الكون أشد ألغازاً وحزناً ، فأزداد أنا أيضا كمداً وأسى .

تألمت روحى ، وانتابتنى الحسرة ؛ لأننى لم أمكث على الشاطىء مع الأزهار ومع « بريجيت » الجميلة . ولكى أعزى نفسى مع اقتراب الغروب ، شرعت فى الغناء مرة أخرى بصوت مرتفع ، وغنيت وسط توهج المساء الأحمر أغنية بريجيت وقبلاتها .

وجاء الغسق ، فالتزمت الصمت ، وأخذ الرجل الممسك بالدفة ، يغنى، وكان هو أيضا يغنى عن الحب ومسرات الحب ، وعن العيون العسلية والعيون الزرق ، وعن الشفاه الحمر الندية ، وكان غناؤه الخالى من الانفعال الذى يتردد فوق التيار المعتم شجيا مؤثراً ، غير أن الحب أصبح أيضاً فى أغنيته قاتماً مرعباً ، وسراً قاتلا يسعى الناس إلى البحث عن حقيقته ، وقد أصابهم مس من الجنون وسالت دماؤهم من التعاسة وهم يعذبون ويقتلون بعضهم بعضاً .

وأصغيت بكل سمعى ، فاستولى عَلَىَّ الإرهاق الحيرة، وكأننى قطعت رحلتى فى أعوام طوال ، ولم أسافر إلا فى الأسى والبؤس . وأحسست بتيار دائم من الحزن والقلق يزحف نحوى من ذلك الرجل الغريب ، و هو يتسلل إلى قلبى .

ولزمت الصمت فى نهاية الأمر بمرارة : « إذن ، فالحياة ليست هى الأسمى والأفضل بل الموت . . فأنا أضرع إليك أيها الملك الحزين ، أن تنشد لى أغنية عن الموت ! »

وأخذ الرجل الجالس عند الدفة يغنى للموت ، وكان غناؤه أجمل من أى شىء سمعته من قبل ، غير أن الموت لم يكن هو أيضا أسمى الأشياء وأفضلها ، وحتى فى الموت لم تكن هناك راحة . كان الموت هو الحياة ، وكانت الحياة هى الموت ، فقد أوصد عليهما معا فى صراع عاشق أبدى مجنون، وكانت هذه هى الكلمة النهائية ، ومعنى الكون ، ثم بزغ نور باهر، وإشعاع ساطع يستطيع أن يجمد كل بؤس ، وجاء ظل آخر عكر صفو السرور والجمال وشملهما فى ظلام قاتم . ولكن من خلال هذه الظلمات خرج الفرح أشد سطوعاً ولمعاناً ، وتوهج الحب توهجاً أعمق وسط هذا الليل البهيم .

أصغيت ، فى سكون تام ، ولم تعد لَدَىَّ إرادة سوى إرادة هذا الرجل الغريب ، واستقرت نظرته هادئة علىّ ، يشوبها شىء من العطف الحزين المتسم بالود ، وكانت عيناه الرماديتان مفعمتين بالأسى ، وبما فى الكون من جمال . وابتسم لى ، فتشجعت وتوسلت إليه مدفوعاً بتعاستى : « دعنا نفرغ من أمرك ! إننى خائف هنا فى الظلام ، وأرجو أن أعود حيث أستطيع أن أجد بريجيت ، أو إلى البيت حيث أجد والدى . »

فنهض الرجل ، وأشار إلى الليل ، فسطع المصباح على وجهه النحيل الممتلىء عزماً : « لاسبيل إلى الرجوع » قال هذه العبارة فى رزانة ولطف معاً «علي المرء أن يواصل السير إلى الأمام إذا كان يبغى سَبْرَ أغوار العالم ، ولقد حصلت على خير مايحصل عليه المرء من الفتاة ذات العينين العسليتين ، وكلما ابتعدت عنها ، كان ذلك خيراً لك ، ولكن ، لابأس ، أبحر حيثما تشاء ، وسأتخلى عن مكانى لك لتمسك بالدفة ! »

كنت يائساً يأساً مميتاً ، ومع ذلك رأيت أنه على حق ، وفكرت فى «بريجيت » وفى بيتى وفى كل شىء كان مشرقا ، أمتلكه بين يدىّ ، فإذا هو الآن ضاع تماماً . . فكرت فى هذا كله يملؤنى الحنين ، ولكن علىّ الآن أن أحتل مكان الرجل ، وأن أدير الدفة ، هذا أمر لامناص منه .

بعدها ، نهضت فى صمت ، وخطوت خلال الزورق متجهاً صوب مقعد الربان ، وخطا الرجل نحوى صامتاً ، وفى أثناء عبورنا تفرس الرجل فى وجهى وناولنى المصباح .

ولكن ، عندما جلست إلى الدفة ، ووضعت المصباح بجانبى ، كنت وحيداً فى القارب . وأدركت – وقد أخذتنى قشعريرة عميقة – أن الرجل قد اختفى ، ومع ذلك لم تساورنى الدهشة ، إذ كنت أتوقع فى قرارة نفسى شيئاً كهذا ، وخيل إلىّ أن يوم التجوال الجميل ، وبريجيت ، وأبى ووطنى ، لم يكن هذا كله سوى أحلام ، وأننى عجوز حزين ، رحلت فعلا ، وكنت راحلاً دائماً وأبداً على صفحة هذا النهر الليلى .

وكنت أعلم أنه لاينبغى لى أن أنادى على الرجل العجوز ، وهبطت علىّ معرفة الحقيقة كأنها رعدة .

ولكى أكون على يقين مما ارتبت فيه فعلا ملت على الماء ، ورفعت المصباح ومن خلال مرآة المياه السوداء ، حملق إلىّ وجه ذو ملامح قاسية مهيبة وعينين رماديتين ، وجه عجوز يعرفنى . . كان وجهى أنا .

ولما لم يكن ثمة سبيل للعودة ، فقد واصلت وحلتى إلى الأمام فوق المياه المظلمة ، متوغلا فى قلب الليل .

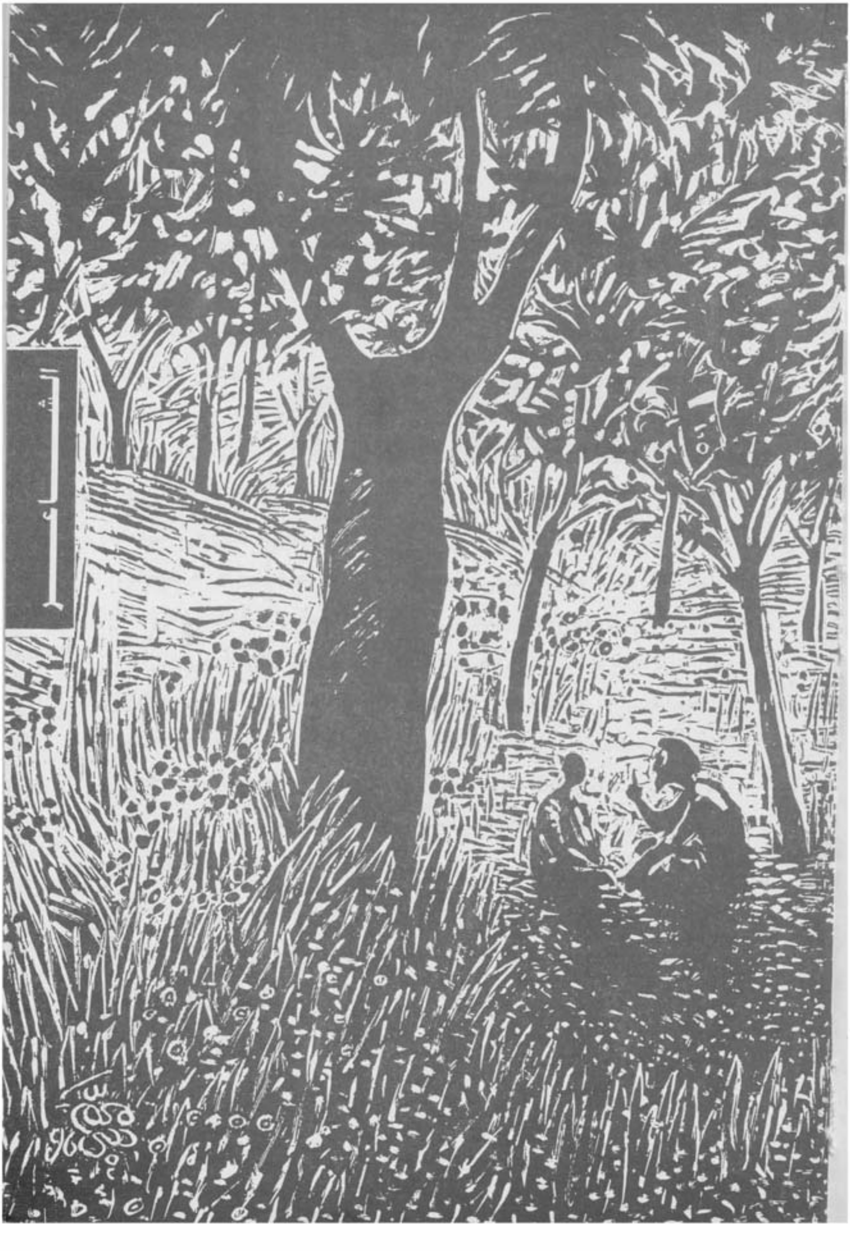

الشـــــاعـر

الصينى «هـــان فوك » كان منذ صباه الباكر مولعاً ولعاً شديداً بمعرفة كل مايتعلق بفن الشعر ، وأراد أن يصل بنفسه إلى الكمال فى كل مايتصل به ، وكان لايزال يعيش فى المدينة التى هى مسقط رأسه والتى تقع على « البحر الأصفر » ، وهناك عقد خطبته - بمحض اختياره وبمساعدة والديه اللذين كانا يحبانه حباً مفعماً بالحنان - على فتاة من أسرة طيبة ، أما ليلَة الزفاف ، فقد تقرر أن يكون إعلانها فى يوم من أيام الفأل الحسن . وكان « هان فوك » حينذاك فى العشرين من عمره ، شاباً وسيماً ، متواضعاً ، مهذباً فى سلوكه ، نال قسطاً من العلوم ، وعلى الرغم من صغر منه فقد كان معروفاً فى الأوساط الأدبية فى الحى الذى يسكنه - بفضل عددٍ من قصائده الجيدة . ومع أنه لم يكن غنياً بالمعنى الدقيق ، فإنه كان يتوقع أن تكفل له موارده حياة مريحة ، وهذه الموارد سوف تزداد بالدوطة التى تقدمها عروسه . ولما كانت عروسه ذات جمال وفضيلة هى أيضا ، فقد كان يبدو أنه لاينقصه شىء لكى يستمتع بسعادة الشباب ، إلا أنه لم يكن راضياً تمام الرضا ؛ ذلك أن قلبه كان عامراً بالطموح إلى أن يصبح شاعراً .

وذات مساء ، عندما كان الناس يحتفلون بمهرجان المصابيح على ضفة

النهر ، تصادف أن كان « هان فوك » يتجول وحيداً على الضفة المقابلة ، وقد أسند جسمه على جذع شجرة معلق فوق الماء ، وعلى صفحة النهر شاهد آلاف الأضواء المنعكسة ، تطفو وترتجف ، ورأى الرجال والنساء والفتيات فى القوارب والمراكب الكبيرة ، يحيون بعضهم بعضاً ، ويتألقون كالأزهار الفاتنة فى ثيابهم الاحتفالية ، وأنصت إلى غناء الفتيات ودندنة القيثارة ، وإلى الألحان العذبة التى يطلقها عازفو الناى ، وفوق هذا كله ، رأى الليل المائل إلى الزرقة مقوساً كأنه قبة معبد . وخفق قلب الشاب خفقاناً شديداً وهو يشاهد هذه الفتنة كلها ، ويدرك أنه مُراقب وحيد يسعى إلى تحقيق أمنيته ، ولكنه ، بقدر ماكان يشتاق إلى عبور النهر والمشاركة فى الاحتفال والتمتع بصحبة عروسه المقبلة وأصدقائه ، كان شوقه إلى أن يستوعب هذا كله بوصفه شاهداً نافذ البصيرة ونظمه فى قصيدة واحدة كاملة - كان هذا الشوق أعمق كثيراً : كان يريد أن يتحدث فى قصيدته عن زرقة الليل ، وتلاعب الضياء على صفحة الماء ، وعن ابتهاج المحتفلين ، وحنين المشاهد الصامت الذى يستند إلى جذع الشجرة على شاطىء النهر . وأدرك أنه فى المهرجانات جميعاً وفى مسرات الأرض كلها ، لن يشعر بالراحة التامة أو الطمأنينة الكاملة فى قلبه ، وحتى وسط الأجواء التى تموج بالحياة ، سيبقى وحيداً دائماً ، وسيظل إلى حد ما مراقباً ، أجنبياً ، وأحس أن روحه التى لاتشبه أرواح الآخرين ، صيغت بحيث ينبغى أن يكون وحيداً ؛ لكى يجمع فى تجربته بين جمال هذه الدنيا وبين الأشواق الخفية التى ينعم بها فؤاده الغريب . وفى عمق الحزن أخذ يتأمل ، وكانت نتيجة أفكاره أن السعادة الحقة والرضا العميق لايمكن أن يظفر بهما إلا إذا نجح مصادفة فى أن يعكس هذا العالم انعكاساً كاملاً فى قصائده بحيث يستطيع أن يمتلك فى هذه الصور المنعكسة ماهية العالم ، نقية أبدية .

ولايدرى « هان فوك » أكان مستيقظاً أم نائماً عندما سمع صوت حفيف وأبصر شخصاً غريباً يقف عند جذع الشجرة ، كان رجلاً عجوزاً مهيب الطلعة ، يرتدى ثوباً بنفسجياً ، فنهض « هان فوك » من جلسته ، وحيا الرجل الغريب التحية اللائقة بالشيوخ الأجلاء ، فابتسم الغريب ، وأنشد بضعة أبيات عبرت عن كل ما أحس به الشاب منذ لحظة أكمل تعبير وأجمله، وجاءت متفقة مع القواعد التى وضعها الشعراء الكبار ، بحيث توقف قلب الشاب عن الخفقان من فرط الذهول .

فصاح وهو ينحنى انحناءة عميقة : « من تكون ؟ أنت الذى تستطيع أن تنفذ إلى روحى ، وأن تنشد هذه الأشعار التى أراها أجمل من كل ماسمعته من أساتذتى ! »

فابتسم الغريب ثانية ابتسامة شخص خُلق ليكون كاملاً ، وقال : « إذا أردت أن تكون شاعراً ، فتعال عندى ، وستجد كوخى إلى جانب منبع «النهر الكبير » عند الجبال الشمالية الغربية . إنهم هناك يطلقون علىَّ اسم «أستاذ الكلمة الكاملة » .

خطا الرجل العجوز إلى ظل الشجرة النحيل واختفى فى الحال ، وأخذ «هان فوك » يبحث عنه عبثاً ، فلما لم يجد له أثرا ، قرر أن الأمر كله لايعدو أن يكون حلماً راوده ، بسبب الإجهاد . فهرع عبر القوارب ، وانضم إلى المهرجان ، ولكنه وسط أحاديث القوم وألحان النايات ، ظل صوت الغريب الغامض يرن فى مسمعيه ، وخيل إليه أن روحه رحلت مع الرجل العجوز، فقد اختار مكاناً بعيداً عن القوم ، شاخصاً بعينين حالمتين إلى ماكانوا يغوصون فيه من مرح ، وقد يأتى إليه من يداعبه ؛ لأنه غارق فى العشق .

ولم تمض أيام قليلة ، حتى استعد والد « هان فوك » لدعوة أصدقائه وأقاربه ؛ لكى يحدد يوم الزفاف ، غير أن العريس أبدى اعتراضه قائلا : «أرجو أن تغفر لى اعتراضى على واجب يدين به الابن لأبيه ، ولكنك تعلم شوقى الشديد إلى أن أبرز فى فن الشعر ، ومع أن بعض أصدقائى يمتدحون قصائدى ، فإننى أعلم جيداً أننى مازلت مبتدئاً ، وفى المرحلة الأولى ؛ ولهذا أرجو أن تسمح لى بالسير فى طريقى وحيداً فترة من الزمن ، وبأن أكرس نفسى لدراساتى ؛ إذ يبدو لى أننى لو اتخذت زوجاً ، وبيتا أشرف علي شئونه، فإن هذا سوف يمنعنى من ممارسة ما أريد . أما الآن ، فمازلت صغيراً بلا واجبات أخرى ، وأحب أن أعيش زمناً من أجل شعرى الذى أرجو أن أستمد منه السعادة ، وأكسب به الشهرة . » كانت دهشة الأب بالغة من حديث ابنه فقال : « لابد أن هذا الفن أعز عليك حقاً من كل شىء ، مادمت تريد أن ترجىء زواجك من أجله ، أم تُرى قد حدث شىء بينك وبين عروسك ؟ إذا كان الأمر كذلك ، فأخبرنى حتى أستطيع أن أساعد على الصلح بينكما ، أو أن أختار لك فتاة أخرى . »

فأقسم الابن بأن عروسه المقبلة مازالت عزيزة عليه كما كانت ، وكما ستكون دائماً ، وأن ظلا من الخلاف لم يهبط بينهما ، ثم أخبر والده أنه فى يوم مهرجان المصابيح زاره أستاذ فى منامه ، وأنه يتمنى أن يكون تلميذه فى لهفة لاتعادلها سعادة الدنيا كلها .

قال أبوه : « فليكن . . سأمنحك عاماً كاملاً . . وفى هذه الفترة يمكن أن تسعى وراء حلمك الذى ربما لم يكن الله هو الذى بعث به إليك . »

قال « هان فوك » متردداً : « ربما استغرق عامين . . من يدرى ؟ »

وتركه أبوه لشأنه ، وقد ساوره شىء من القلق ، إلا أن الشاب كتب رسالة لعروسه ، ثم قال : وداعاً ، ورحل .

وبعد أن تجول زمناً طويلاً ، بلغ منبع النهر ، فوجد عنده كوخاً من البوص (البامبو) فى عزلة تامة ، وأمام الكوخ جلس الرجل العجوز الذى رآه بجانب الشجرة على شاطىء النهر - فوق نجيلة مجدولة ، يعزف على العود ، وعندما أبصر ضيفه يقترب منه متهيباً ، لم ينهض ، ولم يقدم له التحية ، ولكنه اكتفى بالابتسام ، وترك أصابعه النحيلة تجرى على الأوتار ، فانبعثت موسيقا سحرية كأنها سحابة فضية تعبر الوادى ، فوقف الشاب مبهوتاً ، وفى هذه الدهشة العذبة نسى كل شىء حتى وضع « أستاذ الكلمة الكاملة » عوده الصغير جانباً ، ودخل إلى الكوخ . تبعه « هان فوك » فى تبجيل شديد ، ومكث معه بوصفه خادمه وتلميذه .

ولم يمض شهر حتى تعلم أن يزدرى كل قصائده التى نظمها من قبل ، ومسحها من ذاكرته مسحاً . وبعد بضعة أشهر كان قد مسح من ذاكرته أيضا كل الأغانى التي تعلمها من أساتذته فى بلده . ولم يكن الأستاذ يتحدث إليه إلا نادراً ، وفى صمت ، علمه فن العزف على العود ، حتى أصبح التلميذ مشبعاً بالموسيقا . وذات مرة كتب « هان فوك » قصيدة قصيرة وصف فيها طائرين يحلقان فى سماء الخريف ، وكان مسروراً بهما ، ولم يجرؤ على إطلاع الأستاذ عليها ، ولكنه أخذ ينشدها ذات مساء خارج الكوخ ، فأصغى إليها الأستاذ فى اهتمام ، ومع ذلك لم يقل شيئاً ، وإنما جعل يعزف فى رقة على عوده ، وسرت البرودة فى الجو ، وهبط العشق فجأة ، وهبت ريح قارسة على الرغم من أن الصيف كان قد انتصف ، وفى السماء التى استحالت إلى اللون الرمادى حلق طائران من طيور البلشون فى جلال

مهيب ، وكان كل شىء أجمل وأكمل كثيرًا من الأشعار التى نظمها التلميذ، الذى استولى عليه الحزن والصمت ، وأحس أنه لايساوى شيئا، وكان هذا مايفعله الشيخ فى كل مرة ، فلما انقضى عام ، كان « هان فوك » قد أوشك أن يتقن العزف على العود إتقاناً تاماً ، إلا أن فن الشعر كان يبدو عصياً بعيد المنال أكثر من ذى قبل .

فلما انقضى عامان ، أحس الشاب بحنين طاغ إلى أسرته ، وإلى مسقط رأسه ، وإلى عروسه ، فطلب من أستاذه أن يأذن له بالرحيل ، فابتسم الأستاذ وأطرق برأسه قائلا :

« أنت حر » ، وتستطيع أن تذهب حيثما شئت ، ولك أن ترجع ، أو تبقى حيث أنت ، افعل مايلائمك . »

وشرع التلميذ فى الرحيل ، وواصل السفر دون انقطاع ، وذات صباح فى ضوء الشفق المعتم ، وقف على شاطىء النهر فى مدينته ونظر عبر الجسر المقوس إلى مسقط رأسه ، وتسلل خفية إلى حديقة أبيه ، وأنصت خلال نافذة حجرة النوم إلى صوت أبيه وهو يتنفس أثناء نومه ، ودخل إلى البستان المجاور لبيت عروسه ، وتسلق شجرة كمثرى أبصر عروسه واقفة فى حجرتها تمشط شعرها . فلما أخذ يقارن بين هذه الأشياء التى كان يراها رأى العين بالصور الذهنية التى رسمها أثناء حنينه إلى وطنه ، أصبح من الواضح بالنسبة إليه أنه قد خلق ليكون شاعراً ، وأدرك أن فى أحلام الشاعر يكمن جمال وسحر يبحث عنهما المرء عبثاً فى عالم الواقع . وهبط من الشجرة ، وأسرع خارجاً من الحديقة ، ماراً فوق الجسر ، بعيداً عن مدينته ، عائداً إلى وادى الجبل السامق . كان الأستاذ الشيخ - كما كان يجلس دائماً - أمام

كوخه فوق نجيلته المتواضعة ، يضرب العود بأصابعه ، وبدلاً من أن يجيبه أنشد بيتين عن نعم الفن ، فاغرورقت عينا الشاب بالدموع ؛ لما فيهما من عمق وانسجام .

ومرة أخرى ، مكث « هان فوك » مع « أستاذ الكلمة الكاملة » الذى شرع يعلم تلميذه العزف على القيثارة ، بعد أن أيقن أنه أتقن العزف على العود . وذابت الشهور كما يذوب الجليد من رياح الغرب ، وعاوده الحنين إلى الوطن مرتين . وفى إحدى هاتين المرتين هرب متسللاً أثناء الليل ، ولكن ، قبل أن يصل إلى آخر منعطف فى الوادى ، هبت ريح الليل على القيثارة المعلقة على باب الكوخ ، وطاردته النغمات ، ونادت عليه أن يعود ، فلم يستطع مقاومتها . أما فى المرة التالية ، فقد حلم بأنه يغرس شجيرة فى حديقته ، وأن زوجته وأطفاله اجتمعوا حولها ، وأخذ الأطفال يروون الشجرة بالنبيذ واللبن . فلما استيقظ من نومه ، رأى القمر ساطعاً فى حجرته ، فنهض مشوش الذهن ، وشاهد فى الحجرة المجاورة أستاذه نائماً ، ولحيته البيضاء ترتعش ارتعاشاً خفيفاً ، وهنا استحوذ عليه شعور بالكراهية المريرة لهذا الرجل الذى بدا له أنه حطّم حياته ، وخدعه فى مستقبله ، وكاد يلقى بنفسه على الأستاذ ويقتله ، لولا أن الشيخ فتح عينيه وأخذ يبتسم فى عذوبة حزينة ولطف جَرَّدَ التلميذ من كل أسلحته .

قال الشيخ فى رقة : « تذكر ياهان ، أنك حر فى أن تفعل ماتشاء تستطيع أن تذهب إلى بيتك ، وأن تزرع الأشجار ، وتستطيع أن تبغضنى وتقتلنى . . والأمران سيان . »

صاح الشاعر وقد تأثر تأثرا عميقاً : « آه ... كيف أستطيع أن أبغضك؟ سيكون ذلك كأننى أبغض الجنة نفسها . »

ومكث مع الشيخ ، وتعلم كيف يعزف على القيثارة ، ثم علي الناى ، وبدأ بعد ذلك يتعلم إنشاء القصائد تحت إشراف أستاذه ، وفي بطء شديد تعلمَ ذلك الفن المستتر الذى يقول به فى الظاهر أشياء بسيطة مألوفة ، ولكنه يحرك بها روح المستمع كما تحرك الريح صفحة الماء ، كان يصف طلوع الشمس ، وكيف تتردد على حافة الجبل ، ويصف اندفاع الأسماك الصامت عندما تنطلق كالظلال تحت المياه ، أو تمايل شجيرة من أشجار البتولا هبت عليها نسمة الربيع ، وعندما كان الناس يستمعون إليه ، لم يكونوا يفكرون فى الشمس وخدها أو فى تلاعب الأسماك أو فى حفيف شجيرة البتولا ، بل كان يبدو لهم أن السماء والأرض يعملان معاً لحظة من الزمان فى انسجام تام ، وكان كل مستمع يجد نفسه مدفوعاً إلى التفكير فى فرح وألم عما يحبه أو يبغضه : الصبى فى رياضته ، والشاب فى حبيبته ، والشيخ فى اقتراب موته .

ولم يعد « هان فوك » يعلم عدد السنين التى قضاها مع « المعلم » بجوار نبع « النهر الكبير » ، وكثيراً ماخيل إليه أنه دخل هذا الوادى مساء الأمس فحسب ، وأن الشيخ قد استقبله عازفاً على آلته الوترية ، وكثيراً ماخيل إليه أيضا أن عصور الإنسان جميعاً وحقب التاريخ قد تلاشت من خلفه ، وأصبحت شيئاً لاوجود له .

وذات صباح استيقظ ليجد نفسه وحيداً فى المنزل ، ومع أنه بحث فى كل مكان ، ونادى على المعلم ، فإنه كان قد اختفى ، وفى لحظة واحدة ، أحس أن الخريف قد أقبل فجأة ، وهبت ريح هوجاء على الكوخ العتيق ، فهزته هزاً عنيفاً ، وعلى قمة الجبل الأشم تحركت أسراب ضخمة من الطيور المهاجرة ، مع أن موسم هجرتها لم يكن قد بدأ بعد .

وهنا أخذ « هان فوك » العود الصغير ،وهبط متجهاً إلى مقاطعته ، وعندما وجد نفسه بين قومه ، تقدم الناس لتحيته كما يحيون شيخاً وقوراً مبجلاً ، فلما بلغ بيته علم أن أباه وعروسه وأقاربه قد ماتوا جميعاً ، وأن أناساً يقيمون مكانهم . وفى المساء كان الناس يحتفلون بمهرجان المصابيح على ضفاف النهر ، فوقف الشاعر « هان فوك » على الجانب من الشاطىء المعتم، وأسند ظهره إلى جذع شجرة عتيقة . وعندما عزف على العود الصغير، تنهدت النسوة وجعلن يتأملن الليل مسحورات ذاهلات ، وأخذ الشبان ينادون على عازف العود الذى لايستطيعون الاهتداء إلى مكانه ، وقد تولتهم الدهشة ؛ لأن أحداً منهم لم يستمع أبداً إلى مثل هذه الألحان تنبعث من عود . إلا أن « هان فوك » تلقى هذا كله بالابتسام ، وشخص ببصره إلى النهر حيث كانت تطفو الصور المنعكسة لآلاف المصابيح ، ولما لم يكن يستطيع التمييز بين الانعاكسات وبين الواقع ، لم يجد أى اختلاف بين هذا المهرجان وبين المهرجان الذى حضره شاباً ، واستمع فيه إلى كلمات « المعلم الغريب » .

الممـــر الصعب

وقفت إلى جانب الفتحة المظلمة فى الصخـــرة عنـــد مدخل الممر ، متردداً ، ورجعت ببصرى إلى الوراء .

كانت الشمس مشرقة فى هذا العالم الأخضر البديع ، وفوق المروج ، أخذت أزاهير العشب المشربة باللون البنى تتماوج وترتعش . وكان ممتعاً أن يخرج المرء إلى هذا الدفء ، وإلى هذه الراحة المحببة ، حيث تترنم الروح فى عمق ورضا ، كما تطن نحلة فى الأريج الكثيف وفى الضياء ، ولعلى كنت من الحماقة عندما أردت أن أترك هذا كله ، وأن أتسلق سلسلة الجبال .

ولمس دليلى ذراعى فى لطف ، فانتزعت عينى من هذا المنظر المحبب ، كما يتحرر إنسان على غير إرادة منه من حمام دافىء . وهنا رأيت الممر ممتداً فى ظلمة لم تدركها الشمس ، وتسلل جدول أسود ضيئل من الفجوة ، وعلى ضفتيه كان ينمو عشب شاحب فى خصلات ، وفى حوضه رقدت الأحجار التى هوى بها فى طريقه ، أحجار من كل الألوان شاحبة ميتة كعظام كائنات هلكت منذ وقت بعيد .

قلت للدليل : « لنأخذ قسطاً من الراحة . »

فابتسم فى شىء من التسامح ، وجلسنا على الأرض . كان الجو بارداً ، ومن المدخل الصخرى انساب تيار من الهواء المعتم يحمل برودة الصخر .

شىء مقزز حقاً أن نمضى فى هذا الطريق ! مقزز أن يرغم المرء نفسه على اقتحام هذا المدخل الصخرى الجهم ، وأن يعبر هذا الغدير البارد ، وأن يتسلق فى الظلام هذا المضيق الضيق الوعر ! قلت فى شىء من الإحجام : «يبدو الطريق بشعاً ! »

واشتعل داخل نفسى أمل قوى لا معقول غير قابل للتصديق ، كما تشتعل جمرات من النار أو شكت على الخمود . . . الأمل بأنه قد يكون من الممكن أن نعود على أعقابنا ، وأن دليلى قد يسمح لنفسه أن يقتنع ، وبأننا يمكن أن نوفر على أنفسنا كل هذا العناء . أجل ، لماذا لانفعل هذا حقاً ؟ أليس المكان الذى تركناه من فورنا أجمل آلاف المرات ؟ ألا تتدفق الحياة هناك ، أغنى ، وأدفأ ، وأشد سحراً ؟ ألم أكن كائناً بشرياً ، أشبه بالطفل ، كائناً قصير العمر من حقه أن يأخذ نصيبه من السعادة ، ركناً دافئاً تحت الشمس ، وأن يستمتع برؤية السماء الزرقاء ، والأزهار ؟

كلا ، إنى أريد أن أمكث حيث كنت ، لاأريد أن ألعب دور البطل والشهيد ، وسأكون راضياً طيلة حياتى إذا أتيح لى أن أبقى فى الوادى ، وفى الشمس .

وبدأت الرجفة تسرى فى أوصالى فعلاً ، وكان من المستحيل أن أمكث هنا طويلا .

قال الدليل : « أنت ترتجف . . من الأفضل أن نمضى فى طريقنا . »

وما إن قال ذلك ، حتى نهض ، ووقف لحظة مشرئباً بطوله الكامل ،

وألقى عليّ نظرة مصحوبة بابتسامة ، كانت ابتسامة تخلو من الاستهزاء ، كما تخلو من التعاطف ، ولا وجود فيها للقسوة أو الشفقة . لم يكن فيها إلا الفهم ، ولاشيء فيها سوى المعرفة .

كانت الابتسامة تقول : « أنا أعرفك ، وأعرف خوفك ، وماتشعر به ، ولم أنس بحال من الأحوال ادعاءاتك أمس واليوم الذى قبله ، وكل إحساس بالجبن انغمست فيه روحك ، وكل نظرة غزل إلى الشمس البديعة المتألقة . . معروفة ومألوفة لى تماماً قبل أن تبديها . »

وبهذه الابتسامة ، نظر إلىّ الدليل ، وخطا الخطوة الأولى داخل تلك الفجوة الصخرية المعتمة ، متقدماً علىّ ، وفى هذه اللحظة أبغضته وأحببته كما يبغض ويحب المحكوم عليه بالإعدام البلطة التى تهوى فوق عنقه . وأكثر من هذا كله ، كرهت معرفته وازدريتها ، وكرهت زعامته ورباطة جأشه ، وخلوه من ذلك الضعف المحبوب ، وكرهت فى نفسى كل مايتفق معه ، ويؤيده ، ومايريد أن يتشبه به ويتبعه .

وكان قد خطا فعلا عدة خطوات ، سائراً على الصخور عبر الغدير الأسود ، وكان على وشك الاختفاء عن ناظرى عند أول منعطف .

صحت : « قف ! » وكنت ممتلئاً بالخوف إلى درجة وجدتنى فيها مدفوعاً إلى التفكير فى الوقت نفسه : لوكان هذا حلماً ، إذن فإن رعبى سوف يبدده فى هذه اللحظة ، فأصحو ، صحت : « قف ! لن أستطيع أن أفعل ذلك ، فلست مهيئاً بعد . »

فتوقف الدليل ، والتفت ناظراً إلىّ فى صمت ، دون تأنيب ، ولكن بذلك الفهم المخيف الذى يتبدى فى نظراته ، وبتلك المعرفة والإحساس المسبق ، وبأنه فهم كل شىء مقدماً تمام الفهم .

سألنى : « أتفضل حقاً أن نعود على أعقابنا ؟ » وقبل أن يكمل عبارته الأخيرة ، كنت أعرف ، وقد استبد بى التمرد ، أننى سوف أقول : لا ، بل لابد أن أقول : لا . وفى الوقت نفسه ، كل ماكان مألوفًا ، محبوباً ، موثوقاً به داخل نفسى يهتف يائساً : « قل : نعم ، قل : نعم ! » ، وأحسست كأن العالم كله ، ووطنى مقيدان إلى ساقى كأنهما كرة من حديد .

وأردت أن أصيح بهذه ال « نعم » ، وإن كنت أعلم جيداً أننى لن أستطيع أن أفعل ذلك .

وهنا أشار الدليل بذراعه ممدودةً إلى الوادى ، فالتفت مرة أخرى صوب تلك المنطقة الحبيبة إلى قلبى . وكان ماشاهدته فى هذه اللحظة أشد إيلاماً لى من كل ماحدث لى من قبل : رأيت وديانى الحبيبة ، الحقول ترقد شاحبة، منطفئة تحت شمس ممتقعة واهنة ، والألوان تتصادم زائفة ، عالية النبرة ، وكانت الظلال شيئاً أسود صدئاً يخلو من السحر ، أما قلبى فقد انقطعت صلته بالأشياء جميعاً ، بكل شىء ، وولى السحر ، وتلاشى العطر، كان لكل شىء رائحة ومذاق الأشياء التى بلغت منذ وقت بعيد درجة الانغماس فى الغثيان . آه ! كم كنت أعرف هذا جيداً ، وكم كنت أخشى هذه الحيلة البشعة التى لجأ إليها الدليل وأمقتها ، هذه الإهانة لكل ماهو عزيز عَلَىَّ، حبيب إلى قلبى ، وكأنه نزع كل مافيها من حمية وروح ، وزيف الروائح ، وسكب السم سراً فى الألوان ! أجل ، كنت أعلم هذا ، وماكان خمراً بالأمس ، أصبح اليوم خلاً ، والخل لن يستحيل مرة أخرى إلى نبيذ !

كنت صامتاً حزيناً وأنا أسير فى أعقاب الدليل . . كان - كما كان دائماً - على صواب . وكان من الخير على الأقل - أنه ظل مرئياً لى - بدلا من أن

يختفى فجأة ويتركنى وحيداً ، وهذا ماحدث كثيراً فى لحظات اتخاذ القرار - وحيداً مع هذا الصوت الغريب الذى يتردد فى صدرى ، والذى كان يتحول إليه فى مثل تلك اللحظات .

أخلدت إلى الصمت ، إلا أن قلبى كان يصرخ متلهفاً : « لا أطلب إلا أن تبقى » وسأتبعك بكل تأكيد ! »

وكانت الأحجار فى الغدير زلقة إلى درجة بشعة ، وكان السير على هذا النحو مرهقاً مثيراً للدوار ، السير خطوة فوق أحجار صغيرة مبللة تنزلق وتغوص تحت أقدام السائر . كما أخذ الممر الممتد من الغدير يرتفع فى الوقت نفسه ارتفاعاً يكاد يكون عمودياً ، واقتربت جدران الصخرة المظلمة اقتراباً شديداً بعضها من البعض الآخر ، ودبت على نحو مشئوم ينذر بالويل ، وفى كل ركن ، كانت تتبدى نيتها الخبيثة فى أن توصد الممر خلفنا ، فتقطع علينا خط الرجعة إلى الأبد . وفوق الصخور الصفراء المغطاة بما يشبه البثور، كانت تسيل طبقة رقيقة لزجة من الماء ، واختفت السماء فوف رأسينا ، كما ولّت ، وتلاشت الزرقة .

سِـرْتُ ثم سرت ، تابعاً دليلى ، وكثيراً ماغمضت عينى خوفاً واشمزازاً . وفجأة ، أبصرت زهرة داكنة اللون تنبت إلى جانب الممر ، كانت مخملية السواد يشيع منها الحزن ، وكانت جميلة ، وتتحدث إلىّ حديثاً مألوفاً . . غير أن دليلى أسرع فى سيره ، فأحسست أننى لو تسكعت لحظة واحدة ، أو ألقيت نظرة أخرى على هذه العين المخملية الأسيانة ، لغمرتنى الكآبة والغم واليأس بما لا أطيق ، وستظل روحى حبيسة إلى الأبد فى هذه المنطقة الهازئة من اللا إحساس والجنون .

زحفت شاعراً بالبلل والقذارة ، وعندما تقاربت الجدران الرطبة فوق رأسينا أكثر فأكثر ، شرع دليلى فى إنشاد أغنيته القديمة على سبيل العزاء . وصوته القوى الفتى الواضح أنشد على وقع كل خطوة : « سأفعلها ، سأفعلها ، سأفعلها ! » وكنت أعرف جيداً أنه يريد تشجيعى ، وحَثِّى على المضى . وكان يريد أن يصرفنى عن التفكير فى هذه الرحلة الجهنمية وماصاحبها من عناء بشع وإحباط ، وكنت أعرف أنه ينتظر منى أن أصاحبه فى الغناء على إيقاع خطواتنا ، ولكننى امتنعت عن هذا ، فما كنت أريد أن أمنحه هذا الانتصار . هل كُنت فى مزاج يسمح بالغناء ؟ ألست كائناً بشرياً ، رجلاً بسيطاً مسكيناً جره تحديه لقلبه إلى مواقف وأفعال تُتَوَقَّعُ منه ؟ ألا يسمح لكل زهرة من أزهار البنسيه وأزهار البنفسج أن تمكث حيث نمت على حافة الغدير ، وأن تزدهر وتذبل وفقا لطريقتها الخاصة ؟

وأخذ الدليل يغنى بلا انقطاع : « سأفعلها ، سأفعلها ، سأفعلها! » آه لو كنت قادراً على الرجوع ! ولكننى استطعت من قبل بمعونة دليلى البارعة أن أتسلق جدراناً وأن أجتاز هاويات لم يكن إلى الرجوع بعدها من سبيل . واحترقت الدموع فى حلقى ، ولكننى لم أجرؤ على البكاء . هذا أمر أبعد مايكون . وهكذا صاحبت الدليل فى أغنيته متحدياً الصوت ، وفى نفس الإيقاع والنغمة ، ولكن بكلمات غير كلماته ، فبدلاً منها أنشدت فى عزم وتصميم : « يجب علىّ ، يجب علىّ ، يجب علىَّ ! » إلا أنه لم يكن من اليسير أن أغنى وأتسلق فى وقت واحد ، فسرعان ماتقطعت أنفاسى ، ووجدتنى مرغماً على الصمت وأنا ألهث ، ولكنه واصل الغناء دون أن يصيبه تعب : «سأفعلها ، سأفعلها ، سأفعلها ! » ولم تمض برهة حتى أرغمنى على مصاحبته فى الغناء بنفس كلماته . وهنا أصبح الغناء أيسر ، ولم أعد أشعر

بأننى مقهور على ما أقدمت عليه ، بل الواقع أننى أردت مواصلة الرحلة ، أما بالنسبة للتعب الذى حل بى من الغناء ، فقد ولى تماماً ، ولم يعد له أثر .

ثم أحسست بإشراقه يشع من داخلى ، وكلما تزايد هذا الشعور ، تراجعت الصخرة الزلقة ، وأصبحت أكثر جفافاً ، وأشد عطفاً ، بل كانت تساعد قدمى المنزلقة فى كثير من الأحيان . وفوق هذا كله أخذت صفحة السماء الزرقاء تزداد ظهوراً واتساعاً وكأنها جدول أزرق صغير بين ضفاف صخرية ، وسرعان مايتحول إلى بحيرة صغيرة زرقاء تزداد طولاً وعرضاً .

وحاولت أن أمارس إرادتى على نحو أشد وأعمق ، ومابرحت البحيرة السماوية تزداد رحابة ، والممر أكثر يسراً : أجل ، كنت أهرول بلا عائق فوق مساحات واسعة ، محافظاً فى يسر على خطواتى مع الدليل دون أن أتخلف عنه . وفجأة ، وبلا توقع ، أبصرت القمة قريبة فوقنا ، شاهقة متألقة فى ضياء الشمس الساطعة .

وعند مسافة قصيرة تحت القمة زحفنا خارجين من ذلك الأخدود الضيق، فهجمت الشمس على عينىّ المبهورتين ، وعندما فتحتهما مرة أخرى ، كانت ركبتاى تصطكان خوفاً ورعباً ، إذ وجدت نفسى واقفاً فى حرية ، دون سند ، على شفا جرف ، ومن حولى امتد الفضاء اللامتناهى ، والأعماق الزرقاء المرعبة ، ولم تكن سوى الذروة الضيقة تطل علينا نحيلة كالسلم ، إلا أن السماء والشمس كانتا هناك مرة أخرى ، وهكذا تسلقنا ذلك المنحدر الأخير الرهيب خطوة خطوة بشفتين مضمومتين وجبين متعب. ولم نلبث أن وقفنا على القمة ، شكلان تافهان على الصخرة السابحة فى ضوء الشمس ، يلفحنا هواء حاد لاذع البرودة .

كان جبلاً غريباً ، وقمة غريبة ! كنا قد بلغنا الذروة بأن تسلقنا جدرانا

صخرية عارية تماماً ، وعلى القمة كانت تنمو على الصخرة شجرة ، شجرة مكتنزة متينة البنيان تتفرع عنها أغصان قصيرة قوية . . وهناك انتصبت وحيدة غريبة ، صلبة عنيدة بصورة تند عن التصور ، تتخلل فروعها سماء باردة زرقاء ، وفى أعلاها ، كان يرقد طائر أسود يصدر عنه غناء أجش .

حلم هادىء براحة قصيرة فوق العالم . الشمس تتوهج ، والصخرة تتألق ، والشجرة تنتصب فى عناد ، والطائر يغنى بصوت أجش . كانت أغنيته الخشنة تعنى : الأبدية ، الأبدية ! ومضى الطائر الأسود فى غنائه ، وكانت عينه الغائرة القاسية تحدق إلينا كأنها كرة بللورية سوداء . كان من العسير احتمال نظرته ومن العسير احتمال غنائه ، وأكثر خوفاً من هذا كله كانت وحشة المكان وخواؤه ، وامتداد السموات القاحلة . وكان الموت نعمة لاسبيل إلى تصورها ، والبقاء هنا عذابًا لا اسم له . ينبغى أن يحدث شىء ، على الفور ، حالاً ، وإلا تحولنا نحن والعالم إلى حجارة من الرعب وحده . وأحسست بهذا الحدث يسبح نحونا ساخناً ، ضاغطاً أشبه بلفحة الريح قبل هبوب العاصفة . أحسست به يرفرف فوق جسدى وروحى كالحمى المحرقة . كان يتهددنا بأنه وشيك المجىء ، كان هناك .

وفجأة ، حلق الطائر راحلاً عن غصنه ، وغاص مباشرة فى الفضاء .

وفى وثبة واحدة ، غاص دليلى فى الزرقة ، وسقط صوب السموات المتوهجة ، وطار بعيداً .

وهنا بلغت الأقدار ذروتها ، وانتزعت فؤادى ، ثم غرقت فى الصمت .

وكنت أهوى فعلاً أن أغوص وأثب وأطير ، متلفعاً بدوامة باردة ، مرقت كالسهم هانئاً ، نابضاً بآلام الوجد ، هابطاً عبر اللانهاية إلى صدر الأم .

أنباء عجيبة

أنباء عجيبة من نجم آخر

تعرضت مقاطعة جنوبية من كوكبنا الرائع لكارثة عظيمة ؛ ذلك أن زلزالاً مصحوباً بعواصف رعدية رهيبة وفيضانات دمر ثلاث قرى كبيرة ، بجميع مافيها من مزارع وحدائق وحقول وغابات . وقُتِلَ فى هذه الكارثة عدد كبير من الناس والحيوانات ، ولعل ماكان أشد إثارة للحزن هو ماعانته تلك المقاطعة من نقص تام فى مقدار الزهور الكافية لتشييع الموتى وتزيين مثواهم الأخير .

وكان كل ماينبغى صنعه ، قد صُنع بالطبع دون إبطاء . فأرسل الرسل على الفور بعد تلك الساعة الفاجعة يحملون نداءً عاجلاً إلى القرى المجاورة لتقديم المعونة والإحسان ، ومن أبراج المقاطعة جميعاً أخذ المنشدون يتلون الآيات المؤثرة تأثيراً عميقاً والمعروفة من قديم الزمان مثل الترتيل الموجه إلى إله الرحمة ، وهو ترتيل لايستطيع أحد أن يقاوم ألحانه . وتقاطر المتعاطفون وأصحاب القلوب الرحيمة أفواجاً من المدن والقرى جميعاً ، وانهالت الدعوات الحارة على المنكوبين الذين أصبحوا بلا مأوى من الأقارب والأصدقاء ، بل من الغرباء أيضاً لإيوائهم ومشاطرتهم بيوتهم . وأُحْضر الطعام والثياب ، والخيل والعربات ، والأدوات ، والحجارة ، والأخشاب ،

وكثير من المواد الأخرى ، من كل الجهات . وبينما كان المستضعفون من الرجال والنساء العجائز والأطفال يبعدون بأيد رحيمة ، مع تقديم وسائل الراحة والعزاء والعناية ، وبينما كان المصابون تُضَمَّدُ جروحهم ، يجرى البحث عن الموتى على قدم وساق بين الأنقاض ، كان فريق آخر من الناس يعملون فى إزالة السقوف المنهارة ، ويدعمون الجدران التى تريد أن تنقض بالأعمدة والعوارض ، ويمهدون لإعادة بناء سريعة . وفى بداية الأمر ، كانت أنفاس الرعب تخيم على الجو ، ومن الموتى انبعث تذكير بالحزن وحَضٌّ على الصمت الوقور ، ولكن سرعان مالاحت على الوجوه وشاعت فى الأصوات نغمة أكثر مرحاً ، وسرت روح مهرجانية مكتومة : ذلك أن المجهود المشترك الذى يبذل فى هذه المهمة العاجلة ، والإقبال على أفعال حميدة جديرة بالشكر والثناء ، أدخلا الاطمئنان على كل قلب . وفى أثناء قيام رجال الإنقاذ بمهمتهم فى رهبة وصمت ، كنت تسمع هنا وهناك صوتاً ينم عن الحبور ، أو أغنية مكتومة تصاحب العمل المشترك ، وكما هو متوقع ، كانت أحب الأغانى حكمتين قديمتين .

« ماأعظم أجر الذى يسارع إلى معونة من أصابته مصيبة ، فإن قلبه يتشرب العطف كما تتشرب حديقة عطشى أمطار الربيع ، وتجيب عن ذلك بالأزهار وألوان الشكر . » والحكمة الأخرى : « إن نعمة الله يغدقها على العمل الذى يشارك فيه الجميع . »

إلا أنهم صادفوا ذلك النقص الخطير فى الزهور . والواقع أن الموتى الأوائل الذين أخرجوا من تحت الأنقاض زينوا بالزهور والأغصان التى جمعت من الحدائق المدمرة . وبحث الناس عن كل الأزهار المتاحة من المدن المجاورة ، إلا أن سوء الطالع لازم هذا البحث ، إذ دمر الزلزال القرى

الثلاث التى كانت تملك أوسع حدائق الزهور وأبدعها فى هذا الموسم من السنة . وكان الناس يقبلون على زيارة هذه الحدائق سنوياً لمشاهدة زهور النرجس والزعفران التى لم تكن توجد بمثل هذه الكميات الهائلة ، أو تزرع بمثل هذه العناية الفائقة ، أو تتميز بهذا التنوع البديع فى الألوان . والآن ، تحطم هذا كله ، ولم يعد له وجود . وهكذا وقع الناس فى حيرة شديدة لا يدرون كيف يؤدون الطقوس المألوفة لكل هؤلاء الموتى ، أو اتباع التقليد الذى يأمر بأن يزيّن كلّ إنسان أو حيوان عند موته بزهور الموسم ، وأن تكون مراسم الدفن أغنى ماتكون كلما كانت الوفاة مباغتة وفاجعة .

ووجد كبير المقاطعة نفسه - وقد وصل فى عربة من عربات الإنقاذ الأولى- محوطاً بالأسئلة ، غارقاً فى الالتماسات والشكاوى ، بحيث وجد مشقة شديدة فى الاحتفاظ برباطة جأشه ، وهدوء أعصابه . ولكنه استطاع بمجهود أن يحتفظ بقلبه هادئاً ، وظلت عيناه مشرقتين ودودتين ، وصوته واضحاً مجاملاً ، ولم تفقد شفتاه لحظة واحدة ابتسامته الوادعة العطوف التى جعلت منه رجلاً حكيماً ناصحاً .

قال : أصدقائى ، لقد نزلت بنا مصيبة وفقا لمشيئة الإله الذى أراد أن يمتحننا ، ونحن نستطيع أن نعيد البناء وأن نعيد إلى إخواننا كل مادُمر هنا ، وأنا أحمد الله أن أذن لى - وأنا فى سن الشيخوخة - أن أشاهد الطريقة التى سارعتم بها إلى هنا ، تاركين أعمالكم ؛ لتقديم العون إلى إخوانكم . ولكن ، أين نجد الزهور التى نستطيع بها أن نزين الموتى كما يليق بهم؛ لنحتفل بانتقالهم إلى العالم الآخر ، فلا ينبغى أن يحدث أبداً ـ مادمنا أحياء ـ أن يدفن فرد واحد من هؤلاء الحجيج المكدودين دون قربان الزهور المناسب . ولاأشك فى أنكم توافقوننى على ذلك . »

فهتفوا جميعاً : « أجل . . هذا مانراه أيضاً . »

قال كبيرهم بصوته الأبوى : « أنا أعرف ذلك . وسأخبركم الآن ماذا ينبغى أن نفعل ، ياأصدقائى . علينا أن ننقل هؤلاء الموتى الذين لم نستطع أن ندفنهم اليوم إلى المعبد الصيفى الكبير ، المشيد فوق أعالى الجبال حيث مازال الجليد باقياً . وهناك ، سيكونون سالمين ، وسيمكثون دون تغيير حتى نستطيع العثور على زهورهم، وهناك واحد فقط يستطيع أن يساعدنا فى الحصول على كثير من الزهور ، فى هذا الموسم ، الملك وحده هو القادر على أن يفعل ذلك . ومن ثم ينبغى أن نبعث بأحدنا إلى الملك ؛ ليلتمس معونته»

ووافقوا جميعاً مرة أخرى صائحين : « أجل ، أجل . . إلى الملك ! .

قال كبيرهم : « فليكن الأمر على هذا النحو » وشعر الجميع بالسعادة وهم يشاهدون ابتسامته المشرقة تحت لحيته البيضاء . « ولكن » من ذا الذى سوف نرسله إلى الملك ؟ ينبغى أن يكون شاباً قوياً ؛ لأن الرحلة طويلة ، وينبغى أن نزوده بأفضل جواد عندنا . وينبغى ـ على كل حال - أن يكون وسيماً أيضاً ، نقى القلب ، متألق العينين بحيث لايملك قلبًا له صدأ . ولاحاجة به أن يتكلم كثيراً ، ولكن ينبغى أن تعرف عيناه كيف تتكلم . وليس من شك أن من الخير إرسال طفل ، أشد الصبيان وسامة فى مجتمعنا ، ولكن كيف يستطيع القيام بمثل هذه الرحلة ؟ لابد أن تساعدونى أيها الأصدقاء ، وإذا كان هناك من يستطيع القيام بهذه المهمة ، أو يعرف شخصاً ملائماً ، فأرجوه أن يتكلم . »

وأخلد كبيرهم إلى الصمت ، وهو يدير عينيه المتألقتين باحثاً منتظرًا ، غير أن أحداً لم يتقدم إلى الإمام ، ولم يرتفع صوت .

فلما أعاد سؤاله مرة ثانية ،ثم ثالثة ، خرج من الحشد فتى فى السادسة عشرة من عمره ، لا يعدو أن يكون طفلاً فى مظهره . وغض عينيه إلى الأرض ، واحمرت وجنتاه خجلاً وهو يحيى كبيرهم .

ونظر إليه الكبير ، فأدرك على الفور أن هذا الفتى هو الرسول المناسب ، ولكنه ابتسم قائلاً : « إنه لشىء جميل أن تريد أن تكون رسولنا ، ولكن كيف حدث أنك الوحيد الذى تطوعت من هذا الحشد كله ؟ »

وهنا رفع الفتى عينيه شاخصاً إلى الرجل العجوز ، وقال : « إذا لم يكن هناك من يريد أن يذهب ، إذن ، فدعنى أذهب . »

غير أن رجلاً من الحشد صاح : « أرسله أيها الكبير . نحن نعرفه . لقد جاء من هذه القرية ، ولقد دمرت الزلازل بستان أزهاره ، وكان بستانه أجمل بستان للزهور فى قريتنا . »

ونظر الكبير فى كثير من العطف فى عينى الفتى ، وسأله : « أتراك حزيناً جداً على زهورك ؟ »

فأجاب الفتى فى هدوء شديد : « أنا حزين حقاً ، ولكن ليس هذا هو السبب الذى دفعنى للتطوع . فقد كان لى صديق عزيز ، ومهر جميل أثير عندى ، قُتل الاثنان معا فى الزلزال ، وهما يرقدان الآن فى تلك القاعة ، ولابد من أن توجد زهور حتى أتمكن من دفنهما . »

وباركه الرجل الكبير بأن وضع عليه راحتيه ، وسرعان ما اختار له القوم أفضل الجياد ، فوثب فوراً إلى ظهره ، وربت على عنقه ، وأومأ برأسه للجمع مودعاً ، وانطلق من القرية راكضاً ، مقتحماً الحقول الموحلة القاحلة التي خربها الزلزال ، مبتعداً عن القرية .

وظل الفتى يرمح بجواده يوماً كاملاً . وكان عليه ـ لكى يبلغ العاصمة ويمثل بين يدى الملك بأسرع مافى وسعه ـ أن يختار طريق الجبال . وعندما حَلّ المساء ، وتراكمت الظلمات ، كان يقود جواده من أعنته مصعداً فى درب عميق الانحدار وسط الغابات والصخور .

وطار طائر ضخم لم يشاهد مثله من قبل أمام ناظريه ، وظل يتابعه حتى هبط الطائر على سقف معبد صغير مفتوح . وترك الشاب جواده عند ممر فى الغابة ، وتقدم خلال الأعمدة الخشبية متجهاً صوب المحراب البسيط . وعند موضع تقديم القرابين لم يجد سوى حجر متواضع ، قُطِعَ من صخرة سوداء لا وجود لنوعها فى تلك الأماكن ، وقد نقش عليها رمز غريب لإله لايعرفه الفتى المرسل : وكان عبارة عن قلب يلتهمه طير جارح .

وحتى يبدى تبجيله لذلك الإله ، قرب إليه زهرة زرقاء تشبه الجرس كان قد التقطها عند سفح الجبل ووضعها فى عروته ، ثم رقد بعد ذلك فى ركن من أركان المعبد ، إذ كان التعب قد أنهكه ، فأراد أن ينام .

إلا أنه لم يجد إلى النوم سبيلاً . ذلك النوم الذى اعتاد أن يزور فراشه كل ليلة ، فقد انبعثت من تلك الزهرة الشبيهة بالجرس التى وضعها على الصخرة ، أومن الحجر الأسود نفسه ، أو من أى مكان آخر ، رائحة غريبة نفاذة مثيرة ، وتألق رمز ذلك الإله الضارم بإشعاع طيفى فى تلك القاعة المعتمة ، وعلى السقف ، حط الطائر العجيب الذى أخذ يضرب بجناحيه الهائلين من حين إلى آخر ، بحيث انبعث من الأشجار حفيف أشبه بالصوت الذى يسبق عاصفة وشيكة .

وهكذا نهض الفتى فى منتصف الليل ، وغادر المعبد ، ونظر إلى الطائر. فصفق بجناحيه ، وسدد عينيه إلى الفتى .

سأله الطائر : « لماذا لم تنم ؟ »

قال الفتى : « لست أدرى ، ربما لأننى تعلمت الحزن . »

- « أى نوع من الحزن ؟ »

- « لقد هلك صديقى ومهرى الأثير فى وقت معاً » .

فسأله الطائر مزدرياً : « وهل الموت سيىء إلى هذا الحد ؟ »

- « كلا ، أيها الطائر العظيم . إنه ليس سيئاً إلى هذا الحد ، إنه لايعدو أن يكون وداعاً ، وليس هذا هو سبب حزنى . الشىء السيىء هو أننا لانستطيع أن نوارى صديقى وجوادى الجميل ؛ لأنه لم يعد لدينا زهور . »

قال الطائر : « ثمة أشياء أسوأ من ذلك كثيراً » ، ونفض ريشه فى شىء من نفاد الصبر .

- « كلا ، أيها الطائر ، لاشىء أسوأ من ذلك بالتأكيد ؛ ذلك أن من يدفن دون قربان الأزهار يحرم من مولده الجديد وفقاً لما يهوى قلبه ، وكل من يدفن موتاه دون الاحتفال بتقديم الأزهار ، ستزوره أطياف الراحلين عنه فى أحلامه . وتستطيع الآن أن تدرك خطورة المسألة ، وحتى أنا لاأستطيع الآن أن أنام ؛ لأن موتاى مازالوا يرقدون بلا زهور .

وأطلق الطائر صيحة خشنة من منقاره المعقوف .

- « أيها الشاب ، أنت جاهل بالحزن إن لم تتعلم شيئاً يتجاوز ماتقول . ألم يقص عليك أحد شيئاً عن كبائر الشرور : عن البغض ، والقتل ، والغيرة ؟ »

وعندما تناهت هذه العبارات إلى سمع الفتى ، أحس كأنه يحلم ،

ولكنه لم يلبث أن تمالك نفسه ، وقال فى تواضع : « بكل تأكيد ، أيها الطائر، أنا أتذكر طبعاً ، فهذه الأشياء مسطورة فى الحكايات القديمة وفى الأساطير ، إلا أن هذه الأمور جميعاً تدور خارج الواقع ، بكل يقين، أو لعل الأمور كانت تسير فى العالم على هذا النحو وعندما لم تكن هناك زهور ، أو آلهة رحيمة . ولكن هيهات أن يفكر أحد فى تلك الأزمنة ! »

وضحك الطائر ضحكة لطيفة ، وشب على مخالبه حتى بدا أطول مما كان، وقال للفتى بصوته الأجش : « إذن ، أنت تريد الآن أن تذهب للملك ، وسأدلك على الطريق » هتف الفتى مسرورًا : « أو تعرف الطريق؟ . أجل إنك قادر على ذلك ، أرجوك أن تفعل . »

وانساب الطائر العملاق فى هدوء ، هابطاً على الأرض ، وفى غير ضجة، نشر جناحيه أحدهما بعيداً عن الآخر ، وأشار إلى الفتى أن يترك جواده خلفه ، وأن يرافقه إلى الملك .

وامتطى الرسول الطائر كما يمتطى جواده ، وأمره الطائر قائلاً : «أغمض عينيك ! » فامتثل الفتى للأمر ، وطار خلال ظلمة السماء ، فى هدوء وانسياب ، كما تطير البومة . ولم يكن الفتى يسمع غير صفير الريح الباردة فى أذنيه . وظلا يطيران حتى انتهى الليل .

وفى الصباح الباكر ، توقفا عن الطيران ، وهتف الطائر : « افتح عينيك . » وفتح الفتى عينيه . فألفى نفسه واقفا على حافة غابة ، وتحت قدميه ، وفى ألق الصبح الأول ، أشرق واد ، كان من السطوع بحيث بهر عينيه .

صاح الطائر : ستجدنى هنا مرة أخرى عند حافة الغابة ، وشق عنان السماء كالسهم ، ولم يلبث أن اختفى فى الصفحة الزرقاء

واستولى شعور غريب على الرسول الشاب حينما أخذ يتجول خارجاً من الغابة إلى السهل المنبسط . كان كل شيء حوله مختلفًا إلى درجة لم يكن يدرى معها : أهو مستيقظ أم حالم . كانت هناك غياض وأشجار تشبه ماكان يراه فى وطنه ، وكانت الشمس ساطعة ، والريح تداعب الأعشاب الطويلة ، إلا أنه لم يكن ثمة إنسان أو حيوان ، أو منازل أو حدائق . .

وإنما كان يبدو ـ بدلاً من ذلك - أن زلزالاً قد وقع هنا كما وقع فى موطن الفتى تماماً ، فهنا وهناك تناثرت أنقاض المبانى ، والفروع المتكسرة ، والأشجار التى اجتثت من جذورها ، والأسوار الملتوية ، وأدوات الزراعة المهجورة منتشرة فى كل مكان ، وفجأة ، أبصر وسط أحد الحقول رجلاً ميتا فى حالة بشعة من حالات التعفن والانحلال ، وأحس الفتى بالتقزز ، وارتفع شعور بالغثيان إلى حلقومه ، فلم يكن قد أبصر شيئاً كهذا من قبل : إن أحداً لم يعبأ حتى بتغطية وجه الميت ، فنهشته الطيور ، وعاث فيه الفساد. وجعل الشاب يجمع بعض أوراق الشجر وقليلاً من الزهور ، وبعينين تتحاشيان النظر ، قام بتغطية ماتبقى من وجه الميت .

وكانت ثمة رائحة بشعة مقبضة لايبلغ مداها التعبير تخيم دافئة لافكاك منها على السهل بأسره . وهناك رقدت جثة أخرى قريبة على العشب يحاصرها سرب من الغربان ، وإلى جوارها جواد مفصول الرأس ، وعظام أناس وحيوانات . وكان الجميع معرضين للشمس ، وقد تركهم أهلهم الأحياء دون أن يفكر أحد منهم فى قرابين الزهور ، أو فى الدفن . بدأ الفتى يخشى أن تكون ثمة كارثة هائلة أصابت هذه البلاد فأهلكت كل من فيها ، ولم تغادر منهم أحداً . وكان الأموات من الكثرة بحيث أقلع عن التقاط الزهور لتغطية وجوههم . وأخذ يجوس خلال الديار وقد استولى عليه

الرعب، بعينين نصف مغمضتين ، وغمرته من كل أقطاره رائحة الجيف النتنة ، ورائحة الدم ، ومن آلاف الأطلال المكدسة ، ومن ركام الموتى تدفقت موجات من البؤس والأسى الصامت أخذت تشتد شيئاً فشيئاً . واعتقد الفتى أنه وقع فى حلم مريع كان أشبه بنذير من آلهة السماء ؛ لأن موتاه مازالوا بلا قرابين من الزهور ، وبلاد فن . وحنيئذ تذكر مانطق به الطائر الغامض فوق سقف المعبد ليلة أمس ، وتردد فى سمعه مرة أخرى صوته الأجش مؤكداً : « هناك أشياء كثيرة أسوأ من ذلك . »

وأدرك الآن أن ذلك الطائر قد حمله إلى نجم آخر ، وأن كل ماتبصره عيناه كان واقعاً حقيقياً ، واستحضر شعوره الذى كان يراوده أحياناً ـ وهو طفل ـ حينما يستمع إلى الحكايات المخيفة عن سالف الأزمنة ، هذا الشعور الخاص عاوده مرة أخرى : رعب يبعث القشعريرة فى أوصاله ، ووراء هذا الرعب يقين هادىء سعيد يملأ قلبه ، بأن هذا كله بعيد بعداً ليس متناهياً ، فى الماضى السحيق . وهنا كان كل شىء أشبه بقصة من قصص الرعب ، هذا العالم من الكوارث والجثث وجوارح الطير كان يبدو له كله خاليا من المعنى، ومن التحكم ، خاضعاً لقوانين غير مفهومة ، قوانين مجنونة ينتصر بمقتضاها دائماً الشرير واللامعقول والقبيح بدلاً من الجميل والخير .

وهنا لمح رجلاً حياً يسير عبر الحقل ، لعله مزارع ، أو أجير في مزرعة ، فركض مسرعاً نحوه ، ونادى عليه . فلما اقترب منه الفتى أجفل ، وامتلأ قلبه بالشفقة ، فقد كان ذلك الفلاح يبدو دمياً دمامة مخيفة ، بحيث لايكاد يشبه ابنا من أبناء الشمس ، وكان مظهره ينم عن الأنانية ويوحى بالامتعاض ، فهو رجل اعتاد علي رؤية كل ماهو زائف وقبيح ، وشرير ، وعاش دائماً فى الكوابيس المرعبة . وفى عينيه ، وفى وجهه ووجوده كله ، لم

يكن ثمه أثر للرزانة أو العطف ، أو ومضة من الشهامة والثقة ، هذه الفضائل البسيطة ، الطبيعية جداً ، كانت معدومة تماماً فى هذا الإنسان التعس .

غير أن الشاب استجمع نفسه ، واقترب من الرجل بود شديد كما يقترب من إنسان نكبه الدهر ، وحياه بطريقة ودية ، وتحدث إليه مبتسماً . واستدار إليه الرجل القبيح ، وكأنهما استحالا حجراً ، وأخذ ينظر فى دهشة بعينين منزعجتين أشد الانزعاج ، وعندما تحدث كان صوته خشناً لا موسيقية فيه كأنه غناء الماشية . ومع ذلك ، فإنه لم يكن يستطيع أن يقاوم ماتبدى فى عينى الشاب من وداعة وثقة . وعندما تفرس لحظة فى وجه الغريب لاحت على وجهه الفظ المعذب شبه ابتسامة ، أو تقطيبة - فيها من القبح مايكفى ، ولكنها لطيفة مندهشة ، أشبه بالابتسامة الخافتة الأولى لروح ولدت من جديد ، وخرجت لتوها من أدنى مناطق الأرض .

سأل الفتى : « ماذا تريد منى ؟ »

وتمشياً مع عادات وطنه ، أجاب الفتى : « أشكرك أيها الصديق، وأرجوك أن تخبرنى إن كانت هناك أية خدمة أستطيع أن أسديها إليك . »

فلما التزم الفلاح الصمت ، وظل يبتسم فى دهشة وارتباك ، قال الفتى :

« أخبرنى ، أيها الصديق ، ماذا حدث هنا ؟ ماهذه الكارثة الرهيبة المروعة ؟ » وأشار بيده إلى مايحيط بهما من خراب ودمار.

ولم يفهم الفلاج لأول وهلة ، فلما أعاد الفتى سؤاله قال : « ألم تر شيئاً كهذا من قبل ؟ هذه حرب ، وهذه ساحة المعركة . » وأشار إلى كومة من

الأنقاض المسودة وصاح : « كان هذا بيتى ! » وعندما نظر الغريب بقلب ملؤه التعاطف إلى عينى الفلاح المكدرتين ، أخفضهما ، وأطرق برأسه إلى الأرض .

ومضى الفتى سائلاً : « أليس لكم ملك ؟ » وعندما أجابه الفلاح بأن لديهم ملكاً ، واصل أسئلته قائلاً : « إذن ، فأين مكانه ؟ » وأشار الرجل إلى معسكر لايكاد يظهر إلا فى عسر ، فقد كان قصياً ضيئلاً ؛ لبعد المسافة . واستودعه الفتى بأن وضع راحته على جبين الرجل ، وشرع فى الرحيل . إلا أن الفلاح رفع كلتا يديه إلى جبهته ، وهز رأسه الثقيل متحيرًا ، ووقف زمناً شاخصاً ببصره إثر الغريب .

وأخذ الفتى يعدو ويعدو ، عبر الأنقاض والفظائع حتى بلغ المعسكر . وهناك وجد رجالاً مسلحين فى كل مكان ، واقفين أو مهرولين ، ولايبدو أن أحدًا أحس بوجوده ، فسار بين الرجال والخيام حتى وصل إلى أضخم وأجمل خيمة فى المعسكر ، وكانت خيمة الملك ، فدخل .

وفى الداخل ، كان الملك جالساً على أريكة بسيطة منخفضة ، وكانت عباءته إلى جانبه ، وإلى جواره ، اختفى فى الظل الداكن خادم استسلم للنوم . وكان الملك يجلس منحنياً مستغرقاً فى الفكر . كان وجهه جميلاً حزيناً ، وفوق جبينه الذى لوحته الشمس تدلت خصلة من شعره الذي وخطه الشيب ، أما سيفه فكان ممتداً أمامه علي الأرض ، وحياه الفتى فى إجلال عميق ، كما يحيى مليكه ، ووقف شابكا ذراعيه على صدره حتى لمحه الملك .

سأله الملك فى قسوة : « من أنت ؟ » وعقد مابين حاجبيه الداكنين ، إلا

أن نظرته تعلقت بملامح الغريب الصافية الهادئة ، ونظر إليه الفتى نظرة حميمة ملؤها الثقة جعلت صوت الملك ألطف مماكان .

قال بلهجة يشيع فيها التأمل : « لقد رأيتك من قبل فى مكان ما ، أو لعلك تبدو كشخص عرفته فى طفولتى . »

قال الرسول : « ما أنا إلا غريب . »

فقال الملك فى نعومة : « إنك تذكرنى بأمى . تحدث إلى . اشرح لى . » فبدأ الفتى : « حملنى طائر إلى هنا ؛ فقد وقع زلزال فى بلدى ؛ ومن ثم نحن نريد أن ندفن موتانا ولانجد زهوراً . . »

قال الملك : « لا تجدون زهوراً ؟ »

- « نعم ، لازهور على الإطلاق . وهذا شىء سيىء . أليس الأمر سيئاً إذا كان علي المرء أن يدفن ميتاً ولايستطيع أن يقيم حفلاً للزهور من أجله . . فلابد ـ على كل حال ـ أن يدخل فى انتقاله إلى العالم الآخر بروعة وفرح . »

وتذكر الرسول بغتة ذلك العدد الكبير من الموتى الذين لم يدفنوا على ساحة المعركة الرهيبة ، فتوقف عن الكلام ، فنظر إليه الملك ، وأطرق برأسه، ثم تنهد تنهدًا عميقا .

فواصل الرسول حديثه قائلاً : « كنت فى طريقى إلى مليكنا لأطلب منه كثيراً من الزهور ، ولكن عندما كنت فى المعبد القائم بين الجبال ، جاء طائر كبير وقال : إنه يستطيع أن يحملنى إلى الملك ، وهكذا طار بى حتى وصلت إليك ، وكان المعبد - أيها الملك العزيز - معبد إله مجهول ، وهو الذى حط الطائر على سقفه ، وهناك أقيم فى محراب ذلك الإله رمز شديد الغرابة :

قلب إنسان يلتهمه طير جارح . وفى أثناء الليل دارت محادثة بينى وبين الطائر الكبير ، وأنا أستطيع الآن أن أفهم كلماته لأول مرة ، إذ قال لى : إن فى العالم عذاباً وشراً أكثر كثيراً مما أعرف . وأنا الآن هنا ، وقد عبرت تلك الساحة الهائلة ، وفى خلال هذه الساعات شاهدت آلامًا ونكبات لاحد لها - أكثر كثيراً مماتحتويه أشد حكاياتنا رعباً . وهأنذا الآن قد أتيت إليك ، أيها الملك ، وأحب أن أسالك ، إن كنت أستطيع أن أؤدى أية خدمة لك . »

وحاول الملك الذى أصغى بانتباه - أن يبتسم ، غير أن محياه الوسيم كان من الحزن والمرارة بحيث لم يستطع الابتسام .

قال : « أشكرك . . إنك لاتستطيع أن تؤدى لى أية خدمة ، ولكنك أعدت أمى إلى ذاكرتى ؛ ولهذا أشكرك . »

وانزعج الفتى إذ رأى الملك عاجزاً عن الابتسام .

فقال له : « ماأشد حزنك ! . أهو بسبب الحرب ؟ »

فقال الملك : « أجل . »

ولم يتمالك الشاب نفسه من انتهاك قواعد اللياقة نحو هذا الرجل النبيل الذى يحمل أعباء جسيمة ، فسأله : «ولكن - أتوسل إليك ، إلا أخبرتنى : لماذا تشن مثل هذه الحروب على نجمكم ؟ ومن هو المسئول عنها؟ أتكون أنت نفسك مسئولاً إلى حد ما ؟ »

وبدا على الملك أنه غضب من هذه الجرأة ، وظل برهة محملقاً إلى الفتى الغريب ، لكنه لم يستطع مواصلة تلك المواجهة بين نظرته القاتمة وبين عينى الغريب المشرقتين الصريحتين .

قال الملك : « أنت طفل . وهناك أمور لا تستطيع أن تفهمها . إن الحرب ليست غلطة أحد ،إنها تحدث من تلقاء نفسها ، كالعاصفة أو البرق، ونحن الذين نخوض الحروب ، لسنا نحن الذين نشعلها، مانحن إلا ضحاياها . »

فسأله الشاب : « لاشك ـ إذن ـ فى أنكم تموتون فى يسر ، أما نحن ـ فى بلدنا ـ فمن المؤكد أن الموت لا يخيفنا كثيراً ، ومعظم الناس يقبلون على هذا الانتقال سعداء متأهبين ،إلا أن أحداً منا لايجسر أبداً على قتل شخص آخر، فلابد أن يكون الأمر مختلفاً فى نجمكم . »

وهز الملك رأسه : « من الحق ، أن القتل ليس نادراً فيما بيننا ، ولكننا نعتبره أفظع الجرائم ، ولايسمح به إلا فى الحرب وحدها ؛ لأن المرء فى الحرب لايقتل من أجل منفعته الشخصية ، بدافع من الحقد أو الحسد ، وإنما يفعل الجميع مايطلبه منهم المجتمع ، وتخطىء على كل حال إذا اعتقدت أننا نموت فى يسر ، ولو نظرت إلى وجوه الموتى ، فسوف ترى ذلك. إنهم يموتون فى مشقة ، وفى عناء لا مصالحة فيه . »

وأنصت الشاب إلى هذا كله فى دهشة من جنون أهل هذا الكوكب ، ومن العناء الذى يكابدونه من جراء طريقتهم فى الحياة .

وكان يود أن يوجه مزيداً من الأسئلة ، ولكنه كان يعلم عن يقين أنه لن يفهم أبداً سياق هذه الأمور المظلمة المرعبة ، بل الواقع أنه لم يكن يريد أن يفهمها : فإما أن هذه المخلوقات التعسة تنتمى إلى نظام أدنى ، وأنها مازالت فى غمرة الجهل بالإله وتتحكم فيها الشياطين ، أو أن نحساً فريداً أو خطأً شنيعاً يسود هذا النجم . وبدا له أن من المؤلم أشد الألم ، ومن

القسوة معاً أن يمضى فى مساءلة هذا الملك ، وإرغامه على الإدلاء بإجابات واعترافات لايمكن إلا أن تكون مريرة الإذلال : ذلك أن هؤلاء القوم الذين يعيشون فى خوف قاتم من الموت ، ومع ذلك يذبحون بعضهم بعضاً فى جماعات ، هؤلاء القوم الذين تتشح وجوههم بتلك الغلظة الوضيعة كما رآها مرتسمة على وجه الفلاح ، أو بمثل ذلك الأسى العميق الرهيب الذى شاهده على وجه الملك - هؤلاء القوم سببوا له عذاباً شديداً ، ومع ذلك ، يبدو عليهم فى طريقهم تلك المزعجة المخجلة - أنهم غاية فى الغرابة إلى درجة تكاد تكون فيها مضحكة ، مضحكة وحمقاء .

ولكنه لم يستطع أن يكبت سؤالاً واحداً : إذا كانت هذه النفوس التعسة مخلوقات متخلفة ، وأطفالاً معوقين ، وأبناء نجم منبوذ جاء فى غير أوانه ، وإذا كانت حيواتهم كما تمر رعدة المتشنج ، وتنتهى بمذبحة ، وإذا كانوا يتركون موتاهم مطروحين فى الحقول ، أو ربما كانوا يأكلونهم - فقد كانت ثمة أقاويل عن هذا الموضوع فى بعض قصص الرعب التى تروى عن الأزمنة الغابرة - فلابد أن يكون لديهم ـ مع هذا كله ـ تطلع إلى المستقبل ، حلم عن الإله ، شىء أشبه ببذرة الروح كامن فيهم ، وإلا كان هذا العالم كله الذى يخلو من الجمال غلطة لامعنى لها بكل تأكيد .

قال الشاب متردداً : « سامحنى أيها الملك - سامحنى إذا وجهت إليك سؤالاً آخر قبل أن أغادر مملكتك المدهشة . »

قال الملك : « إذن ، هات سؤالك ، » فقد كان هذا الغريب بالنسبة إليه أشبه بالمفارقة ، وكان يبدو - فى كثير من الوجوه - روحاً مثقفة ناضجة ، ومستنيرة إلى درجة لاتقبل التصديق ، ولكنه كان من وجوه أخرى - أشبه بطفل صغير على المرء أن يسايره دون أن يأخذه مأخذ الجد الحق .

فقال الرسول : « أيها الملك الغريب ، لقد أثرت كوامن الحزن فى نفسى . . . جئت من بلد آخر ، وكان الطائر الكبير الذى هبط على سقف المعبد مصيباً فيما أخبرنى به : فهنا معك يوجد من البؤس مايزيد إلى مالا نهاية عما يمكن أن أتخيله ؟ إن حياتكم تبدو لى حلماً مرعباً ، ولا أدرى إن كان يحكمكم الإله أم تحكمكم الشياطين . لدينا أسطورة - أيها الملك - كنت أعتبرها حتى الآن خرافة لامعنى لها ، دخاناً فارغاً ، أسطورة تقول : إنه كان لدينا نحن أيضاً فى الزمن الغابر أشياء مثل الحرب والقتل واليأس ، هذه الكلمات المرعبة التى أصبحت غير متداولة فى لغتنا منذ زمن بعيد ، يمكن أن توجد فى كتب الحكايات العتيقة ، وهى تبدو لنا الآن فظيعة ، بل مضحكة أيضاً إلى حد ما . واليوم عرفت أنها حقيقية كلها ، وهأنذا أرى أنك وشعبك تفعلون وتعانون أشياء لم أكن أعرفها إلا من حكايات الماضى المخيفة ، ولكن ، أخبرنى الآن : ألا يوجد فى نفوسكم وازع بأنكم تفعلون ماليس بحق ؟ ألا تشتاقون إلى إله مشرق عادل ، إلى الفهم ، إلى زعماء مرحين ، إلى مرشدين ؟ وفى الليل ، ألا تحلمون أبداً بحياة مختلفة أكثر جمالاً، لايريد فيها أحد شيئاً سوى الخير المشترك ، حيث يسود العقل والنظام ، وحيث يلتقى الناس الواحد بالآخر دائما فى مرح وبشاشة ؟ ألم يخطر لكم أبداً أن العالم يمكن أن يكون كلاً واحداً ، وأنه قد يكون من النافع والشافع أن تعتمدوا على هذا التنبؤ ، وأن تجمعوا « الكل » وأن تخدموه فى حب ؟ ألا تعرفون شيئاً عما نسميه فى وطننا الموسيقا ، وخدمة الرب ، والنعمة الإلهية ؟ »

كان الملك قد نكَّس رأسه وهو يصغى إلى هذه الكلمات ، ولكنه رفعها الآن ، فبدا وجهه متحولاً ، مشرقاً بطيف ابتسامة ، وقد تجمدت فى عينيه الدموع .

قال الملك : « أيها الصبى الجميل ، أنا لاأدرى حقاً إن كنت طفلاً أو رجلاً حكيماً ، أو ربما كنت كائنا خالداً ، ولكننى أستطيع أن أخبرك بأن هذه الأشياء جميعاً التى تحدثت عنها تسكن فى أرواحنا ، ولدينا شعور مسبق يتطلع إلى السعادة إلى الإله ، ولدينا أسطورة تحكى عن رجل حكيم عاش فى الزمن الغابر ، وأدرك وحدة العالم بوصفها الموسيقا المنسجمة التى تصدر عن الأجرام السماوية . أيجيب هذا عن سؤلك ؟ انظر أيها الفتى ، ربما كنت قديساً أتى إلينا من العالم الآخر ، فما من سعادة فى قلبك ، أو قوة إرادة لايجاوبها شعور مسبق ، ظل بعيداً فى قلوبنا نحن أيضاً .

وفجأة ، هب واقفاً ، فبان فى طوله الكامل ، ونظر إليه الفتى مأخوذاً ؛ إذ غمرت وجه الملك فى لحظة ابتسامة مشرقة باهرة كألق الصبح .

صاح قائلاً للرسول : « اذهب الآن . اذهب الآن ودعنا لحروبنا وجرائمنا ! لقد جعلت قلبى واهناً ، وذكرتنى بأمى ، كفاك ! كفاك هذا أيها الصبى العزيز الجميل ! اذهب الآن ، واهرب قبل أن تبدأ المعركة التالية ! سأفكر فيك عندما تسيل الدماء وتحترق المدن ، وسأفكر فى العالم بوصفه كُلا لايستطيع أن يفصمنا عنه مانخشى على أعيننا من عمى وماجاشت به نفوسنا من غضب وقسوة . وداعاً ، واحمل تحياتى لنجمكم ، وتحياتى للإله الذى اتخذوا له رمزاً قلباً ينهشه طائر ! أنا أعرف جيداً هذا القلب وذلك الطائر .

واعلم ياصديقى الجميل القادم من بعيد : عندما تفكر فى صديقك ، عندما تفكر فى الملك المسكين المشتبك فى الحرب ، لاتفكر فيه متربعاً على أريكته ، غارقاً فى التعاسة ، وإنما فكر فيه عندما هب واقفاً تملأ الدموع عينيه ، ويلطخ الدم يديه وهو مبتسم ! »

ورفع الملك ستر الخيمة بيده ، دون أن يوقظ خادمه ، وترك الغريب يرحل . وعاد الفتى مهرولاً على أعقابه مخترقا السهل ، وقد استغرق فى أفكار جديدة ، وفى غسق المساء لمح عبر الأفق مدينة عظيمة اشتعلت ناراً ، فأخذ يتلمس سبيله فوق جثث الموتى وهياكل الجياد المتآكلة ، حتى هبط الظلام ، وكان قد بلغ حافة الغابة .

وهناك ، كان الطائر الكبير يهبط من خلال السحب ، فحمله فوق جناحيه ، وطار عائداً فى هدأة الليل ساكناً ناعماً كما تطير البومة .

وعندما صحا الفتى من نوم قلق ، وجد نفسه راقداً في المعبد الصغير القائم وسط الجبال ، وأمام المعبد وقف جواده فوق الحشائش المبتلة ، وهو يصهل فى وجه الفجر . أما عن الطائر الكبير ، وعن رحلته إلى النجم الآخر، وعن الملك ، وعن ساحة القتال ، فلم يعد يتذكر شيئاً على الإطلاق، ولم يتبق من هذا سوى ظل فى روحه ، ووخزة غامضة من الألم كأنما هى وخزة شوكة ، أو على النحو الذى يجرح به التعاطف العاجز ، أو كما تعذبنا أحياناً فى أحلامنا رغبة صغيرة لم نشبعها حتى نلتقى فى نهاية الأمر بالشخص الذى تشوقنا طويلاً أن نبدى له حبنا ، وتشوقنا سراً أن تشاركه فى أفراحه ، وتشوقنا سراً أن نرى ابتسامته .

وامتطى الرسول فرسه الذى سار به يوما بأكمله حتى بلغ العاصمة ، ومثل بين يدى الملك ، وأثبت أنه الرسول الصحيح . ذلك أن الملك تلقاه بتحية كريمة بأن لمس جبهته قائلا : « لقد تحدثت عيناك إلى قلبى ، فاستجاب قلبى ، وطلبك مجاب حتى قبل أن أسمعه . »

وعندئذ تلقى الرسول ميثاقاً من الملك يعلن فيه أن زهور المملكة جميعاً

متاحة له ، وانضم إليه المرافقون والخدم ركباناً ومترجلين ، وظهرت الجياد والعربات ، وبعد أيام قلائل ، عندما سار فى طريقه حول الجبال عائداً إلى بيته عبر الطريق الممهد إلى مقاطعته ومدينته ، كانت تصحبه العربات والمركبات والسلال ، والخيل والحمير ، تحمل كلها أجمل الزهور التى قطفت من حدائق الشمال وبساتينه ، وكانت تكفى تماماً لتكليل أجساد الموتى ، وتزيين مقابرهم ، كما تكفى لغرس زهرة للذكرى فوق كل لحد ، بل زرع أجمة بأكملها ، وشجرة فاكهة صغيرة كما تقضى بذلك التقاليد . وهنا فارقه الألم الذى لازمه من أجل صديقه ومهره الأثير ، وحلت مكانه ذكرى هادئة سعيدة ، بعد أن وضع فوقهما الأكاليل وأتم دفنهما ، وغرس فوق قبريهما زهرتين واجمتين ، وشجرتين من أشجار الفاكهة .

وبعد أن أدى واجباته على النحو الأكمل ، وخفّف عن قلبه العذاب ، شرعت ذكريات تلك الرحلة التى قام بها أثناء الليل تتحرك فى نفسه ، فطلب من أهله الأقربين أن يتيحوا له يوماً يخلو فيه إلى نفسه . وهناك جلس تحت شجرة التأمل يوماً وليلة ، واستعرض أمام فكره الصور التى وقعت له فى ذلك النجم الغريب - واضحة بلا غموض . وانتهى تأمله بأن اقترب من كبيرهم ذات يوم ، وطلب منه المحادثة ، وأخبره بكل شىء .

وأنصت الكبير جيداً لحديث الفتى ، وجلس مستغرقاً فى التفكير ، وأخيراً سأله قائلاً : « أرأيت هذا كله ياصديقي بعينيك ، أم كان مجرد حلم؟ »

قال الفتى : « لست أدرى ، وأعتقد فى الواقع أن الأمر كله قد يكون حلماً ، وعلى كل حال ، اسمح لى أن أقول : إنه لايكاد يوجد أى اختلاف لو أن هذه الأحداث عرضت فى واقع الأمر لحواسى ؛ ذلك أن ظلاً من

الأسى يلازمنى منذ ذلك الحين ، ووسط أفراح الحياة ، تهب عَلَيَّ ريح باردة من ذلك النجم البعيد ، ولهذا أسالك ياسيدى المبجل : ماذا علىّ أن أفعل؟ »

قال كبيرهم : « عد غداً الى الجبال ، والى المكان الذى وجدت فيه المعبد . . إذ يبدو لى أن رمز ذلك الإله الذى لم أسمع به من قبل أبداً - يبدو غريباً عَلَيَّ، لعله يكون إلها من نجم آخر . ومن ناحية أخرى ، ربما كان المبعد وإلهه من القدم بحيث ينتميان إلى الحقب التى عاش فيها أسلافنا القدماء ، إلى تلك الأيام الغابرة التى قيل عنها : إننا كنا مازلنا نمتلك الأسلحة ، ونحيا فى الرعب ، ونعيش فى خوف من الموت . عد إلى ذلك المعبد ، ياصديقى ، وقدم قرباناً من الزهور والعسل والأغانى . »

وأعرب الفتى عن شكره ، واتبع توجيهات الرجل الكبير ، فأخذ حفنة من عسل مصفى من النوع الذى يقدم للضيوف الكبار فى أول مهرجان للنحل فى مطلع الربيع ، وصحب عوده معه . وفى الجبال عثر على المكان الذى اقتطف منه ذات مرة تلك الزهرة الزرقاء الشبيهة بالجرس ، كما وجد الجبل الصخرى الشديد الانحدار ، والممر الذى سار فيه بحصانه خلال الغابات ، ولكنه لم يستطع أن يهتدى مرة أخرى إلى مكان المعبد ، أو إلى المعبد نفسه ، كما لم يجد الحجر الأسود الذى تقدم أمامه القرابين ، والأعمدة الخشبية والسقف ، والطائر الكبير الذى الذى حط عليه ، لم يجد شيئاً من هذا فى يومه ، أو فى اليوم التالى ، ولم يجد من يدله على ذلك المعبد كما وصفه .

ومن ثم عاد على أعقابه إلى وطنه ، وعندما بلغ محراب الذكرى الحبيبة ، دخله ، وقدم العسل قربانًا ، وأنشد أغنيته بمصاحبة عوده ، وأثنى على

«إله الذكرى الحبيبة » لأنه أوحى إليه بذلك الحلم الذى زاره ، وأشاد بالمعبد وبالطائر ، وبالفلاح المسكين ، وبالقتلى المطروحين فى ساحة المعركة ، وخاصة الملك فى خيمته الحربية . وبعد أن فرغ من هذا كله ، عاد إلى بيته منشرح الصدر ، وعلق على جدار غرفته رمز وحدة الآلام ، واسترد بالنوم العميق مافقده من عافيته فى تجارب الأيام الماضية . وفى الصباح التالى ، شرع فى تقديم العون إلى جيرانه ، الذين كانوا منهمكين فى حدائقهم وحقولهم محاولين إزالة الآثار الأخيرة للزلزال ، وهم يغنّون أثناء عملهم .

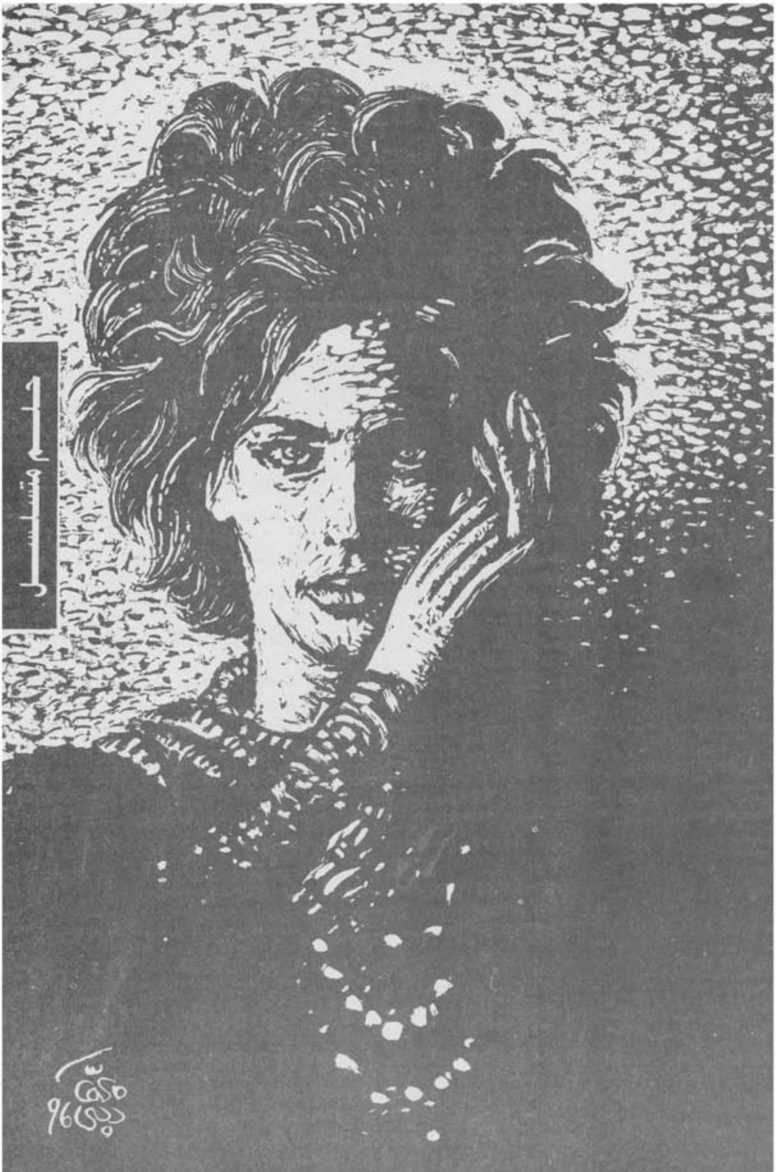
حلم متسلسل

حلم مسلسل

بدا لى أننى قضيت فعلاً شطراً كبيراً من الزمن الخادع الضائع فى ذلك «الصالون» الخانق الذي يسطع على نوافذه الشمالية البحر الزائف . لم يكن يجتذب أو يسترعى انتباهى سوى حضور تلك السيدة الفاتنة المشبوهة التى اعتبرتها آثمة . كنت أشتاق ـ بلا جدوى ـ أن ألقى على محياها نظرة واحدة مشبعة ، ذلك المحيا الذى كان يطفو خافتاً وسط شعر فاحم مرسل وسحابة من الشحوب العذب لا أكثر . من المحتمل أن عينيها كانتا عسليتين ؛ فثمة سبب داخلى يدفعنى إلى هذا الافتراض ، ولكن ، إذا كان الأمر كذلك ، فإن عينيها فى هذه الحالة لن تنسجما مع الوجه الذى كنت أجتهد فى قراءته وسط ذلك الشحوب الغائم ، والذى كنت أعلم أن شكله يرقد مدفوناً فى المستويات العميقة التى لاسبيل إلى إدراكها بذاكرتى .

وأخيراً . . . حدث شىء . دخل الشابان ، فحيا كل منهما السيدة فى لباقة مصطنعة ،وتم تقديمهما إلىّ . قلت لنفسى : هذان قردان ، وتضايقت من نفسى ؛ لأن السترة الجميلة المفصّلة على أحدث طراز بلونها البنى المائل إلى الاحمرار والتي يرتديها أحدهما ، ملأتنى خجلاً وحسداً .

شعور فظيع بالحسد لهذا المبتسم الذى لايعروه خجل أو ارتباك ، والذى لاتستطيع أن تجد فيه مايدعو إلى اللوم . وأمرت نفسى من الداخل قائلاً : «استجمع أشتات نفسك . تماسك ! » ومد كل منهما يده لمصافحتى بغير اكتراث . . (لماذا مددتها لهما ؟) . . وهما يرسمان على شفاههما ابتسامات هازئة .

وهنا أدركت أن ثمة خطأً فى مظهرى ، فأحسست ببرودة مزعجة تسرى فى أوصالى ، فأطرقت بنظرى إلى الأرض ، وعرانى الشحوب حين أبصرت أننى أرتدى جوربى ولكن بلا حذاء . هاهى ذى تعاودنى فى كل لحظة تلك الإحباطات الدنيئة ، التعسة ، الوضيعة ! فلم يحدث قط للآخرين أن يظهروا عرايا أو نصف عرايا فى الصالونات أمام جماعة من الناس لاتجد فيهم عيباً ، ولاتأخذ عليهم مأخذاً ! من هذا الشعور بالخزى ، حاولت أن أدارى على الأقل قدمى اليسرى بقدمى اليمنى ، وفى أثناء هذه المحاولة حامت عيناى من خلال النافذة ، فشاهدت الصخور الجهمة المنحدوة بشدة فوق المحيط الأزرق تتهددنى بألوان زائفة مشئومة ، وبنية شيطانية ، فنظرت إلى الغريبين حائراً مستنجداً ، مفعماً بالحقد على هؤلاء القوم ، وممتلئاً بحقد أشد على نفسى ؛ فما من شىء يستقيم بالنسبة لى ، هذه هى المشكلة . ولماذا أشعر بأننى مسئول عن هذا البحر العفن ؟ حسن ، مادام هذا هو ماأشعربه إذنْ فقد « كنت » مسئولاً . وركزت بصرى على وجه الشاب ذى السترة البنية - الحمراء - متوسلاً . كانت وجنتاه تتألقان صحة وورنقاً ، وكنت أعرف جيداً أننى أعرض نفسى بلا هدف وأنه لن يتأثر بضراعتى . وفى هذه اللحظة ، لاحظ قدمىّ فى جوربهما الخشن باللون الأخضر الداكن - آه ! ربما جمدت هذه النظرة لو أن الجورب كان خالياً من الثقوب ! -

فابتسم ابتسامة تنم عن الامتعاض ،فغمز لرفيقه ، وأشار إلى قدميَّ . فابتسم الآخر مستهزئاً .

صحت ملوحا بذراعيَّ إلى النافذة : « انظر إلى البحر وحده » .

وهزّ الرجل ذو السترة البنية الحمراء كتفيه ، فلم يكن يخطر له أن يستدير ناحية النافذة ، ولاكان هذا يعنيه فى شىء ، وقال للرجل الآخر شيئاً لم أفهمه إلا قليلاً، ولكننى كنت المقصود به ، وكان متعلقاً بالأشخاص الذين يرتدون جوارب ولاينبغى أن يسمح لهم بالوجود فى مثل هذا الصالون . وفى أثناء استماعى ، اتخذت كلمة « صالون » مرة أخرى - كما كانت تتخذ فى طفولتى - تلك النغمة شبه المغرية - شبه المبهرة - للامتياز الدنيوى .

وبدموع تكاد تطفر من عينىّ ، انحنيت لأرى إن كان ثمة شىء أستطيع أن أفعله لقدمى ، فأدركت أنهما قد تحررتا من الخف المنزلى ، فهناك على الأقل ، شاهدت الخف الناعم الأحمر الكبير الذى أستعمله فى حجرة النوم راقداً ورائى على الأرض ، فتناولته بيدى فى كثير من التردد ، وأمسكت به ، مازال بى ميل شديد إلى البكاء . وانزلق الخف بعيداً عنى ، فالتقطته أثناء وقوعه - وفى هذه الأثناء تضخّم حجمه - وسرعان ماأمسكته بسبابة قدمى .

وفجأة ساورنى شعور بارتياح داخلى ، وأدركت القيمة العظمى للخف الذى كان يهتز قليلاً فى راحتى مائلاً إلى أسفل بسبب كعبه الثقيل . ماأروع أن يملك الإنسان مثل هذا الخف الأحمر الرخو ، وأن يكون على هذه الدرجة من النعومة والثقل ! وطوّحت به -على سبيل التجربة ـ مرات قلائل فى الهواء، وكان هذا العمل لذيذاً ، غمرنى بنشوة بلغت جذور شعرى . هذا

شيء لا يمكن المقارنة بينه وبين أية لعبة أخرى . وهذه اللعبة التى كنت ألعبها بخفى العظيم أطلقت عليها اسماً إيطالياهو « كالزيجليون » .

وعندما سددت نحو رأس الفتى البنى - الأحمر ضربة أولى بالرأس بخفى (الكالزيجليون) ، هوى ذلك الشاب الذى لاعيب فيه مترنحا على الأريكة، وهنا فقد الآخرون والحجرة وذلك البحر المخيف كل سيطرتهم علىّ . كنت ضخماً قوياً ، وكنت حراً ، وفى الضربة الثانية التى تلقاها رأس الفتى البنى - الأحمر ، لم يعد هناك مجال للمنافسة ، ولم أعد فى حاجة إلى النزول إلى مستوى الدفاع عن النفس فى تصرفاتى ، وإنما مجرد الزهو ، واللجوء إلى نزوة الخيال الحر . كما أننى لم أعد أبغض خصمى المنهزم بحال من الأحوال ، بل كنت أجده جديراً بالاهتمام ، شيئاً نفيسًا عزيزاً على نفسى، فأنا - على كل حال ـ سيده ؛ ذلك أننى فى كل ضربة جيدة من خفى الغريب الغليظ، كنت أشكل تلك الرأس البدائية الشبيهة برأس القرد ، وأصوغها ، وأكونها ، وفى كل « كبسة » بناءة كانت تزداد جاذبية ووسامةً وصقلاً ، فأصبحت ألقى من صنعى شيئا يرضينى وأحبه . وبضربة نهائية من حداد خبير ، فلطحت القفا المدبب بما فيه الكفاية ، فأصبح منتهياً فشكرنى ، وضرب على يدى ، فقلت ملوحاً له : « كل شىء على مايرام » ، فشبك ذراعيه فوق صدره ، وقال متذللاً : « اسمى بول . »

امتلأ صدرى بشعور رائع بالقوة ، شعور فرح له الفضاء المحيط بى ، وأما الحجرة - ولاداعى لتسميتها بعد الآن بالصالون - فقد انكمشت خزياً، وزحفت بعيداً وهى خاوية . ووقفت إلى جوار البحر . كان البحر أزرق مشوبًا بالسواد ، وكانت سحب صلبة تجثم على الجبال المعتمة ، كانت المياه القاتمة ترغى وتزبد ، وعويل العاصفة يحوم فى دوائر ، مقبضاً مرعباً ،

ونظرت إلى أعلى ، ورفعت يدى إشارة بأن العاصفة تستطيع أن تبدأ . وانفجر من الزرقة سهم من البرق الساطع ومن البرد ، وهبط إعصار أهوج دافىء مزمجراً، وتدفقت أشكال رمادية صاخبة متفرقة من السماء كأنها المرمر ذو العروق . وارتفعت أمواج مذعورة من البحر المعذب ، وكانت العاصفة تمزق الرذاذ المتطاير من قممها ومن مكانس الزبد اللاسعة ، وتسفعها فى وجهى . وفتحت الجبال السود المخدرة عيوناً واسعة مليئة بالرعب ، وكانت انتفاضاتها الصامتة ترنّ كأنها تضرع .

ووسط هذه الهجمة الجليلة للعاصفة التى امتطت جياداً عملاقة شبحية، تحدث إلىّ على مقربة منى ، صوت خجول . آه ! أنا لم أتناسك أيتها السيدة الشاحبة ذات الشعر الفاحم الطويل ! فانحنيت لها ، وتحدثت إلىّ بلهجة طفولية : البحر قادم ، ولاينبغى أن يمكث المرء هنا . تأثرت ، وواصلت النظر إلى الخاطئة الرقيقة ، كان وجهها شاحباً شحوباً وديعاً وسط غسق شعرها الذى يحاصره ، وكانت أمواج التأنيب قد أخذت فعلاً تضرب ركبتى وصدرى ،وجعلت الخاطئة تطفو بلا حول ولا طول ، صامتة فوق المياه الآخذة فى الارتفاع . ضحكت قليلاً ، ووضعت ذراعى تحت ركبتيها ، ورفعتها إلىّ ، وكانت هذه الحركة أيضاً جميلة محررة ، وكانت المرأة خفيفة نحيفة بصورة تدعو إلى الدهشة وممتلئة بدفء غض ،وكانت عيناها صادقتين، تشيع فيهما الثقة بالآخرين ، ولكنها كانت منزعجة ، ورأيت أنها لم تكن خاطئة على الإطلاق ، كما أنها لم تكن سيدة متباعدة مستعصية على الفهم : لاخطايا ، ولا غموض ، كانت مجرد طفلة .

وخرجت بها من الأمواج ، وحملتها عبر الصخور ، وخلال المتنزه الحزين الذى وشحه المطر بالسواد هناك ، حيث لاتستطيع العاصفة أن تدركنا ،

وحيث يتحدث إلينا من تيجان الأشجار العتيقة المنحنية الجمال الإنسانى العذب البسيط ، القصائد الرائعة ، والسمفونيات ، عالم من الإيحاءات النبيلة ، ومتع ساخرة متحضرة ، وشجيرات فاتنة رسمها «كورو » ، وموسيقا « شوبرت » الريفية النبيلة ، التى وضعها لآلات النفخ الخشبية ، والتى أغوتنى إغواءً ماكرًا لزيارة المعبد المحبوب فى فورة وقتية من فورات الحنين ، ولكن عبثًا كان للعالم أصواته المتعددة ، وللروح ساعاتها ولحظاتها لكل شىء .

ويعلم الله كيف رحلت الخاطئة ، المرأة الشاحبة ، الطفلة ، واختفت عن عينى . كان هناك منفذ يؤدى إلى الخارج عبر سلالم ضخرية ، وكانت هناك بوابة المدخل ، وكان الخدم حاضرين ، وكان كل شىء معتماً غائماً كأنما يقع خلف زجاج شبه شفاف . . . بل هناك أشياء أكثر من ذلك شبحية وغياماً ، أجسام تنفخها الريح ، وانبعثت نغمة من اللوم والتأنيب موجهة ضدى مما أثار سخطى على عاصفة الظلال . اختفى كل شىء فيما عدا شكل « بول » صديقى وابنى « بول »، وكانت ملامحه تكشف وتخفى فى آن واحد وجها لا اسم له ، ومع ذلك فهو مألوف لى إلى مالا نهاية ، وجه زميلة من زميلات المدرسة ، وجها أزلياً أسطورياً لمرضة ، يتكون من شبه الذكريات الحسنة القوية لتلك الأعوام المبكرة الخرافية .

الظلمة الطيبة التى تجلب العزاء للقلب ، المهد الدافىء للروح وللوطن الضائع .ينفتح أمامى ، زمان الوجود الذى لم يتخلق بعد ، الارتعاشات الأولى غير الواثقة فوق مصدر النبع ، حيث تنام تحتها الأزمنة القديمة بأحلامها عن الغابات الاستوائية ، تحسسى طريقك أيتها الروح ، تجولى ، ولاتكفى عن التجول ، غوصى عشوائية فى حمام الشهوات البريئة من الإثم!

أنا أعرفك ، أيتها الروح الجبان ، لاشىء ألزم لك ، لاشىء أفضل لك من الطعام والشراب والنوم سوى الرجوع إلى البدايات . فهناك تهدر الأمواج حولك ، فتصبحين موجة ، وترسل الغابة حفيفها فتكونين غابة . لاوجود لخارج عنك ، أو داخل فيك . أنت تطيرين . . كطائر فى الهواء ، وتسبحين كسمكة فى الماء ، وتتنفسين فى الضياء ، فأنت ضياء ، وتتذوقين الظلمة فأنت ظلام . نحن نتجول – أيتها الروح ـ ونحن نسبح ونطير ونبتسم ، وبأنامل شبحية رقيقة نربط من جديد الخيوط الممزقة ونوحّد مغتبطين الهارمونيات المنفصلة ، ولم نعد نريد العالم ؛ لأننا العالم . نحن نقتل ونموت مع الآخرين ، نحن نخلق ونُبعث بأحلامنا . وأروع أحلامنا هى السماء الزرقاء ، وأروع أحلامنا هو البحر ، وأروع أحلامنا هى السماء المرصعة بالنجوم ، وهى الأسماك ، وهو النور الساطع السعيد ، والأصوات المشرقة السعيدة . كل شىء هو حلمنا ، وكل شىء هو أروع أحلامنا . لقد متنا وأصبحنا تراباً ، وقد اكتشفنا الضحك من فورنا ، ورتبنا صورة الأفلاك .

والأصوات تتجاوب ، وكل صوت فيها هو صوت أمنا . وينبعث الحفيف من الشجر ، وكل شجرة منها تبعث حفيفها فوق مهدنا . وتتفرق السبل على هيئة نجم ، وكل سبيل منها يؤدى إلى الوطن . وذلك الشخص الذى سمّى نفسه « بول » مخلوقى وصديقى ، كان هناك مرة أخرى ، وكان قد بلغ من الكبر مابلغته .

إنه يشبه صديقاً من أصدقاء الصبا ، ولكننى لا أدرى من يكون ذلك الصديق ؛ ومن ثم كنت أجد شيئاً من الحرج معه ، وأظهر له صداً معيناً من

المجاملة . ومن هذا استمدّ قوّته . لم يعد العالم يطيعنى ، بل كان يطيعه؛ ومن ثم فإن كل ماقد سبق اختفى وانهار بلا احتمال .

كنا فى ميدان ، وكان المكان يدعى باريس ، وقد انتصبت أمامى رافعة حديدية تطاول السماء ، كانت عبارة عن سُلم ، وعلى كلا جانبيه تدلت حلقات حديدية صغيرة يستطيع المرء أن يقبض عليها بيديه ، كما يستطيع أن يتسلقها بقدميه . ولما كان « بول » يريد ذلك ، فقد كنت أول من تسلق، وهو بجانبى فى سلم مماثل . وحين تسلقنا بها يحاذى منزلاً مرتفعاً ، أوشجرة شديدة العلو ، بدأت أشعر بالفزع ، فرفعت بصرى إلى «بول » ولم يكن يشعر بالخوف ، ولكنه أحس بخوفى فابتسم .

وفى زمن لايزيد عن لحظة ، تنفس بمقدار ما ابتسم ، ونظرت إليه ، كنت قد اقتربت اقتراباً شديداً من التعرف على وجهه ، وتذكر اسمه ،وأيام الدراسة ، عندما كنت فى الثانية عشرة من عمرى ، أمْجد مراحل العمر ، عندما كان كل شىء زاخراً بالعطر ، حافلا بالأنس ، محفوفاً برائحة الخير الطازج ، وبألق المغامرة - كان المسيح فى الثانية عشرة من عمره عندما فضح الكتبة فى المعبد - ونحن أيضاً عندما كنا فى الثانية عشرة فضحنا كتبتنا ومعلمينا ، وكنا أذكى منهم ، وأكبر موهبة ، وأشجع . وتدافعت الذكريات والصور فى ذهنى : الكتب المدرسية المنسية ، الحجز ساعة الغذاء، طائر قتلته بمقلاع ، جيب فى سترتى حشوته ببرقوق مسروق لزج ، طرطشات وحشية صبيانية فى حمام السباحة ، سراويل الأحد الممزقة وألوان من تأنيب الضمير ، صلوات حارة أثناء الليل لحل المشكلات الأرضية ، مشاعر بطولية رائدة عن الجلال عن مطالعة أشعار لشيللر . . . .

لم تكن سوى ومضة برق لم تستغرق إلا ثانية واحدة ، سلسلة من الصور

المشرعة بغير بؤرة . وفى اللحظة التالية كان وجه « بول » يحملق فىّ مرة أخرى، فلا أكاد أتبينه إلا فى عناء شديد ، لم أعد على يقين من سنى ، ومن المحتمل أننا كنا صبيانًا ، وهناك تحت الحلقات الضيقة لسلمنا امتدت - أبعد فأبعد - كتلة الشوارع التى تسمى « باريس » ولكن ، عندما كنا أعلى من أى برج ، انتهى أمر رافعاتنا الحديدية ؛ إذ كان يعلوها لوح أفقى عبارة عن رصيف مصغر ، وكان يبدو من المحال الوقوف على هذه الألواح ، غير أن «بول» استطاع أن يفعل ذلك فى شىء من الإهمال ، وكان علىّ أن أفعل ذلك أيضاً .

فما إنْ بلغت أعلى مكان حتى طرحت نفسى مستوياً على اللوح ، ونظرت إلى أسفل الحافة وكأننى أنظر من سحابة شاهقة صغيرة ، وهبطت نظرتى كالحجر فى الفراغ دون أن تجد هدفاً . وهنا أشار رفيقى بيده ، فوجدت نفسى مفتوناً بمنظر بديع يحوم فى منتصف الهواء ، وهناك ، فوق شارع عريض بمستوى الأسقف العليا وإن يكن أسفل منا بكثير ، شاهدت جماعة تبدو عليها ملامح الأجانب ، كان يبدو أنها مجموعة من الراقصين فوق الأسلاك ، وفعلاً رأيت واحداً منهم يجرى جيئة وذهاباً فوق سلك أو قضيب ، ثم اكتشفت أن هناك عدداً كبيراً منهم ، أغلبهم من الفتيات الصغيرات ، وخيل إلى أنهن من الغجر أو من القبائل الرحل . وكانوا يسيرون ، ثم يتمددون ، ويجلسون ، ويتحركون على ارتفاع الأسقف فوق إطار هوائى لأقل السقالات سمكاً ، وبين قطبين أشبه بالتعريشة أو المظلة ، وكانوا يعيشون فى تلك الأماكن ، ويشعرون فى تلك المنطقة بأنهم فى بيوتهم وأما الشارع الممتد تحتهم ، فلا يستطيع المرء الا أن يتخيله ؛ إذ كانت دوامة من الضباب الرقيق تمتد من الأرض حتى توشك أن تلامس أقدامهم .

وأبدى « بول » ملحوظة . فأجبته قائلاً : « أجل ، إنه لشىء مؤثر ، كل هؤلاء الفتيات . »

والحق أننى كنت فى مكان أعلى منهن كثيراً ، ولكننى كنت متمسكاً بموقعى ، على حين أنهن كن يتحركن بخفة وبلا خوف ، ورأيت أننى على علو شاهق ، وأننى فى مكان خاطىء . أما هن فكن فى الارتفاع السليم ، ومع ذلك لم يكن على ذلك العلو الشيطانى وعلى ذلك البعد الذى كنت فيه، ولم تكن الفتيات وسط الناس ، ولكن لم يكن منعزلات تماماً ، وفضلا عن ذلك ، كان هناك عدد كبير منهن، ورأيت جيداً أنهن يمثلن نعمة لم أحصل عليها بعد .

كنت أعرف أننى سوف أهبط من هذا السلم البشع ، وكان مجرد التفكير فيه يبعث الانقباض فى نفسى إلى درجة الغثيان ، ولم أعد أطيق البقاء لحظة واحدة بعد ذلك ، وأخذت أتحسس منتفضاً من الدوار موقع قدمى على حلقات السلم - ذلك أننى لم أكن أستطيع أن أراها من اللوحة - وهكذا ظللت معلقاً بضع دقائق على ذلك الارتفاع الرهيب وأنا أناضل متشنجاً ، ولم يساعدنى أحد ، فقد ذهب « بول » .

وفى رعب مهين ، جعلت أتخبط بقدمى ويدى ، واستولى علىّ شعور أشبه بالضباب ، شعور بأنه ليس السلم الشاهق أو الدوار هو ماينبغى على أن أحتمله بالتمام والكمال ، ذلك أننى فقدت على الفور رؤية الأشياء وشكلها ؛ إذ تحول كل شىء إلى حيرة واضطراب . وفى لحظة كنت لا أزال معلقاً من الحلقات مع ذلك الشعور بالدوار ، وفى اللحظة التالية كنت أزحف ، ضيئلاً مذعوراً ، خلال ممرات ودهاليز ضيقة تمتد تحت الأرض ، ثم أخوض بعد ذلك فى أوحال وروث ، شاعراً بالمخاط القذر يصعد حتى

يبلغ فمى . كانت الظلمات والعوائق فى كل مكان . واجبات رهيبة ذات مغزى فاجع ، ولكنها مستترة : خوف وعرق ، شلل وبرد ، موت عسر ، وولادة عسرة !

ياله من ليل يحيط بنا بلا حدود ! وما أكثر دروب العذاب التى نسلكها ، ونغوص فى أغوار كهف الروح المليئة بالحصى ، بكل المعاناة الأبدية ! ولكننا نواصل السير ، نحنى هاماتنا ، ونخوض الأوحال ، ونسبح ، ونختنق فى النفايات ، ونزحف على جدران ملساء مهلكة ، ونبكى ، وينتابنا اليأس ، ونصرخ فزعاً ، ونصيح ألماً ، ولكننا نواصل المسير ، ونمضى على الدرب ، ونتعذب ، ثم نستأنف السير ، ونشق طريقنا بأظافرنا وأنيابنا .

ومن تلك الأبخرة الجحيمية الحامية عادت الرؤية مرة أخرى ، وتكشف شريط قصير من الممر المظلم لنور الذاكرة الذى يحدد شكل الأشياء ، وشقت الروح طريقها خارجة من العالم البدائى إلى الدائرة المألوفة للزمان المعروف .

أين كان هذا ؟ الأشياء المألوفة تحملق فى وجهى ، وأنا أتنفس جواً أعرفه . هذه حجرة واسعة تسبح فى عتمة خفيفة ، وهذا مصباح يضاء بالغاز فوق المنضدة ، إنه مصباحى ، والمنضدة كبيرة مستديرة أشبه بالبيانو. وكانت أختى تقف فيها ، وزوجها ، ربما قدما للزيارة ، أولعلي كنت معهما. كانا صامتين منزعجين ، يبديان قلقاً شديداً على وكنت أقف فى الحجرة الرحبة المعتمة ، أذرعها جيئة وذهابا ، أقف ثم أمشى ثانية تغشانى سحابة من الحزن ، طوفان من الحزن المرير الخانق . وشرعت أبحث عن شىء ، عن أى شىء لا أهمية له : كتاب ، مقص ، شىء من هذا القبيل ،

ولكنى لاأستطيع أن أعثر عليه . وأمسكت بالمصباح فى يدى . . كان ثقيلاً، وكنت فى غاية من الإرهاق ، فلم ألبث أن وضعته ، ثم تناولته مرة أخرى ، وأردت أن أواصل البحث ، وإن كنت أعلم أنه غير مجد، فلن أجد شيئاً ، بل سأزيد من الاضطرابات فى كل مكان ، وربما سقط المصباح من يدى ، فقد كان ثقيلاً إلى درجة الإيلام ، ومن ثم سأضطر إلى تحسس طريقى ، وإلى البحث والتجول فى الغرفة طيلة حياتى البائسة .

ونظر إلىّ زوج شقيقتى قلقاً وفى نظرته شىء من العتاب .. كانا يريان أننى على حافة الجنون ، ففكرت على الفور ، والتقطت المصباح مرة أخرى ، وأقبلت على أختى صامتة وبعينين ضارعتين ، مفعمتين بالخوف والحب ، حتى أحسست بأن قلبى سينفطر . ولم أستطع أن أقول شيئاً ، كل ماكان فى وسعى هو أن أبسط يدى وألوح لها بإشارة أطلب منها أن تبتعد عنى ، وفكرت : اتركينى وحدى ! هذا كل مافى الأمر . . اتركينى وحدى ! لايمكن أن تعرفى ماأشعر به ، وماأعانيه ، وماأفظع ماأعانيه ! ثم رددت ثانية : اتركينى وشأنى ! اتركينى وشأنى ! .

ملأ ضوء المصباح الأحمر الحجرة الواسعة ، وفى الخارج كانت الأشجار تزمجر بفعل الريح . وخيّل الىّ لحظة واحدة أن لدى أعمق رؤية باطنية وإحساس بالليل فى الخارج : رياح ورطوبة الخريف ، رائحة أوراق الشجر، حفيف الأوراق المنبعث من شجرة الدردار ، الخريف ، الخريف ! وعاودنى مرة أخرى لبرهة ذلك الإحساس بأننى لست نفسى ، وإنما كنت أرى نفسى كما أرى صورة : كنت موسيقياً شاحباً هزيلاً ذا عينين وامضتين اسمه « هوجر فولف » ، وفى هذا المساء كنت فى عملية التحول إلى الجنون .

وفى هذه الأثناء ، كان علىّ أن أواصل البحث دون أمل ، وأن أرفع المصباح الثقيل لأضعه على المائدة ، على المقعد ، علي خزانة الكتب . وكان علىّ أن أدافع عن نفسى بحركات ضارعة عندما نظرت إلىّ أختى مرة أخرى حزينة مهمومة ، تريد أن تواسينى ، وأن تكون على مقربة منى ، وأن تساعدنى . وجعل الأسى الكامن فى نفسى ينمو ويملؤنى حتى بلغ نقطة الانفجار ، وكانت الصور المحيطة بى ذات طبيعة طاغية ، أوضح كثيراً من الواقع المألوف ، وزهور خريفية فى آنية ، وتحتها مفرش بنى قاتم يميل إلى الاحمرار ، تتوهج بوحدة جميلة أليمة ، وكل شىء ، حتى قاعدة المصباح النحاسية اللامعة ،كان يتميز بجمال ساحر ، وينعزل ،كما هى الحال فى لوحات كبار المصورين .

أبصرتُ قدرى فى وضوح ، نظرة أخرى من أختى ، لمحة أخرى من الزهور ، الزهور الفاتنة المفعمة بالروح - وسيأتى الطوفان ، وسأغوص فى بحر الجنون ، دعينى ! أنت لاتفهمين ! وعلى الجانب اللامع من البيانو ، انعكس شعاع من ضوء المصباح على الخشب الأسود ، فبدا غاية فى الفتنة والغموض والكآبة ! .

وهنا ، نهضت أختى مرة أخرى ،واتجهت صوب البيانو ، وأردت أن أتوسل معها ، أردت أن أمنعها بقدرتى الذهنية ، ولكننى لم أستطع ، ذلك أن قوتى لم تكن تنتقل إليها من وحدتى ، وعرفت على وجه اليقين ماسيحدث بعد ذلك ، كنت أعرف اللحن الذى سيجد صوته حتماً فى هذه اللحظة ، قائلاً كل شىء ،محطماً كل شىء . ثمة توتر وحشى يعتصر قلبى ، وبينما طفرت من عينى الدموع المحرقة الأولى ألقيت برأسى ويدى على

المائدة ، وأصغيت مستغرقاً بكل حواسى ، بل بحواس جديدة أضيفت إلى الكلمات واللحن فى الحال ، لحن فولف وهذه الأشعار :

ماذا تعرفين ، ياأعالى الأشجار المظلمة ،

عن جمال الأزمنة القديمة ؟

أرض الوطن الممتدة عبر الجبال ،

ما أبعد ك عنّا الآن ! ماأبعدك !

وعند هذا ، وأمام عينى ، وفى داخلى ، انزلق العالم منفصلاً ، فابتلعته الدموع والأنغام ، وكان من المحال التعبير عن السيولة ، وعن التيار الجارف، وعن السماحة والألم ! أيتها الدموع ، أيتها الأنهار العذبة ، أيها الذوبان السعيد ! إن كتب العالم جميعاً الزاخرة بالأفكار والأشعار ليست شيئاً بالقياس إلى لحظة واحدة من البكاء عندما يفيض الشعور فى موجات ، وحين تدرك الروح ، وتجد نفسها فى الأعماق . إن الدموع هى جليد الروح المذاب ، والملائكة جميعاً قريبون من الشخص الذى يبكى .

وطفقت أبكى ، متناسياً العلل والأسباب جميعاً وأنا أهبط من أعالى التوتر الذى لايحتمل إلى الغسق اللطيف الذى يكتنف المشاعر العادية ، بلا أفكار ، وبلا شهود . وفيما بين ذلك ، رأيت الصور : نعش يرقد فيه شخص عزيز على جداً ، وهام بالنسبة لى ، ولكننى لاأعرف من هو . وخطر لىَ أنه ربما كان أنت نفسك ، ثم لاح لى منظر آخر من المسافة البعيدة الشاحبة . ألم أشاهد منذ أعوام خلت أو فى حياة مبكرة منظراً بديعاً : جماعة من الفيتات الصغيرات يعشن عالياً فى الهواء ، أشبه بالسحب وبلا وزن ،

فاتنات هانئات ، تطفو كل منهن خفيفة فى الهواء ، ثرية كالموسيقا الوترية؟ .

وتلاحقت الأعوام سراعاً فيما بين ذلك ، تدفعنى فى لطف ، ولكن فى غير قدرة منى على المقاومة - بعيداً عن الصورة . واأسفاه ! ربما لم يكن لحياتى كلها سوى هذا المعنى ، أن أرى هذه الفتيات الجميلات المحمومات فى الهواء ، وأن أقترب منهن ، وأن أصبح مثلهن ! والآن ، اختفين جميعاً فى الأفق البعيد ، فلا سبيل إلى اللحاق بهن أو فهمهن ، أو تحريرهن ، تحاصرهن الشهوة المتملقة واليأس المكدود .

وانسابت الأيام كما تنثال نتف الجليد ، وتغير العالم . كنت أتجول حزيناً متجهاً صوب منزل صغير ، وأحسست بالتعاسة ، وشغلنى إحساس منذر فى فمى ، فأخذت أحرك لسانى محاذراً حول إحدى أسنانى الفاسدة ، فانخلعت فى الحال ، وسقطت على الأرض ، ولحقت بها السن التالية ، هى أيضا ! وكان هناك طبيب فى مطلع الشباب ، فتوسلت إليه ماسكاً بسن منهما بين إصبعى محاولاً إقناعه . ضحك فى مرح ، وصرفنى بنظرة محترفة قاتلة ، وهز رأسه الصغير ، هذا كله لايعنى شيئاً ، ولاضرر فيه على الإطلاق ، ويحدث كل يوم . ياإلهى العزيز ! بهذا حدثت نفسى . ولكنه واصل حديثه ، وأشار إلى ركبتى اليسرى : هنا مكمن العلة ، هذا شيء مختلف تماماً وليس موضوعاً للدعابة . وبسرعة يشيع فيها الاضطراب ، جثوت على ركبتى ، وهنا أبصرت كل شيء ! كان هناك ثقب أستطيع أن أدس فيه إصبعى ، وبدلاً من الجلد واللحم لم يكن ثمة ما أشعر به سوى كتلة ناعمة إسفنجية لاحساسية فيها ، خفيفة وليفيه أشبه بمادة النباتات الذابلة . يا إلهى ! هذا هو التحلل ! هذا هو الموت والانحلال ! فسألته فى

مودة كانت عسيرة على نفسى « إذن ، فليس هناك مايمكن صنعه ؟ » قال الطبيب : « لاشىء أكثر من ذلك » واختفى

سرت - وأنا فى حالة شديدة من الإرهاق - صوب المنزل الصغير ، ولكننى لم أكن قانطاً كما ينبغى أن أكون حقاً ، بل الواقع أننى كدت أكون لامبالياً . والآن ، يجب علىّ أن أدخل البيت الصغير حيث تنتظرنى أمى ، ألم أسمع صوتها فعلاً ، وأرى وجهها ؟ درجات السلم تقود إلى أعلى ، درجات مجنونة ، مرتفعة وناعمة دون درابزين ، كل منها جبل ، كل منها قمة ، ثلاجة . كان الوقت متأخراً جداً بكل تأكيد . . . ولعلها رحلت فعلاً، وربما قضت نحبها فعلاً ! ألم أسمعها تنادينى مرة أخرى ؟ كافحت صامتاً درجات السلم الجبلية الوعرة ، أسقط وأصطدم ، متوحشاً مجهشاً بالبكاء ، تسلقت متوتر الأعصاب ، مستنداً إلى نفسى بذراعين خاذلتين ، وركبتين مرتعشتين ، أصبحت الآن فى أعلى السلم ، عند البوابة ، وعادت الدرجات صغيرة مرة أخرى ، وجميلة ، يحيط بها إطار خشبى . وكانت كل خطوة من خطواتى متعثرة ثقيلة ، وكأننى أخوض فى أوحال وصمغ لاأستطيع انتزاع نفسى . وكانت البوابة مفتوحة على مصراعيها ، وفى الداخل ، كانت أمى تسير مرتدية ثوباً رمادياً ، وتحمل سلة صغيرة على ذراعها ، صامتة مستغرقة فى التفكير . آه ! يالشعرها الفاحم الذى وخطه الشيب قليلاً فى الشبكة الصغيرة ! مشيتها ، وقوامها الضئيل ! والثوب ، الثوب الرمادى ! هل ضاعت صورتها منى تماماً بعد كل هذه الأعوام الكثيرة، ألم أفكر فيها على الإطلاق حقاً ؟ هاهى ذى أمام عينى ، تقف هناك وتمشى ، لا أراها إلا من الخلف ، كما كانت بالضبط ، واضحة تماماً وجميلة، إنه الحب الخالص ، والأفكار الخالصة عن الحب ! .

وفى حنق بالغ ، خضت خلال الهواء اللزج بمشية مشلولة ، وكانت خيوط النباتات المتسلقة تلتف حولى كجبال رفيعة قوية تشد وثاقى ، عوائق خبيثة فى كل مكان . لاسبيل إلى المضى فى طريقى ! صرخت : « أمى ! » ولكننى لم أجد لى صوتاً ! ولم يخرج من فمى صوت ! كان هناك حاجز من زجاج يحول بينى وبينها .

وسارت أمى متئدة دون أن تنظر خلفها ، مستغرقة فى صمت فى أفكار جميلة حبيبة تنفض عن ثوبها بيدها المألوفة خيطاً غير مرئى ، وتنحنى على سلتها الصغيرة التى تضم أدوات الحياكة . آه ! تلك السلة الصغيرة ! لقد أخفت عنى فيها ذات مرة بيضة عيد الفصح ، صرخت يائساً ، ولكن بلا صوت . عدوت دون أن أنتقل من موضعى ! استهلكنى الحنان والغضب معاً .

وسارت متمهلة خلال البيت الصيفى ، ووقفت فى الطريق المفتوح المؤدى إلى البوابة على الجانب الآخر ، إلى الخارج . تركت رأسها يميل قليلاً إلى أحد الجانبين ، منصتة فى لطف ، مستغرقة فى الأفكار ، وهى ترفع السلة الصغيرة وتخفضها ، وتذكرت شريطاً من الورق عثرت عليه وأنا صبى فى سلتها للحياكة ، كتبت عليه بخطها الجميل ماتعتزم القيام به ذلك اليوم وماتريد أن تعنى به : « سراويل هرمان استهلكت تماماً - إعداد الغسيل - استعارة كتاب لوى كانز - هرمان لم يؤد صلواته أمس . » أنهار من الذكريات وشحنات من الحب ! .

ووقفت على البوابة ، مُقَيَّدًا مغلولاً ، وعبر البوابة كانت المرأة ذات الرداء الرمادى تمضى بعيداً فى بطء ، إلى الحديقة ، ولم تلبث أن اختفت .

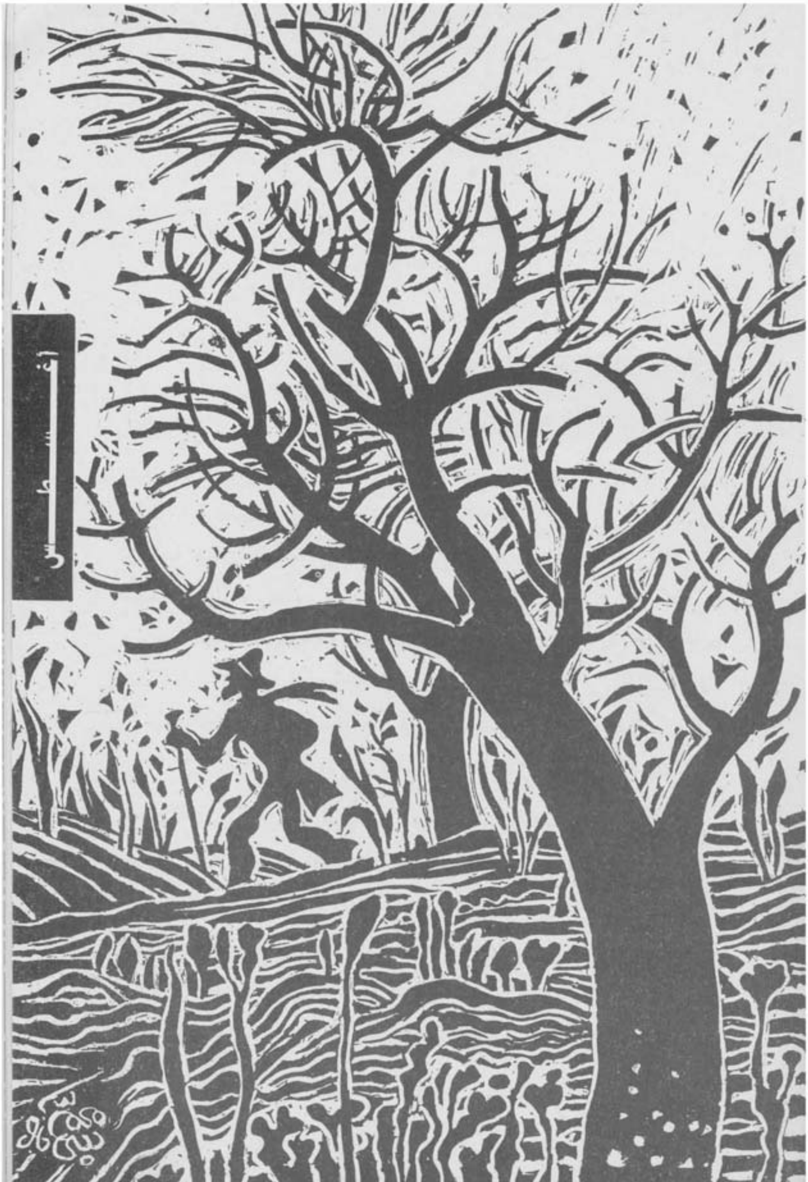

أغسطس

أغسطس

كانت تقيم فى شارع « موستاكر» امرأة فى ريعان الصبا ، فقدت زوجها إثر حادث أليم ولم يمض على زواجها غير وقت قصير . وها هى ذى قابعة فى حجرتها الضيقة ، فقيرة مهجورة ، تنتظر طفلها الذى قدر له أن يولد يتيما . ولما كانت تعانى وحدة لا يؤنسها فيها أى شىء ، استقرت خواطرها دون انقطاع على الطفل المنتظر ، فلم تدع شيئا جميلا رائعا مرغوبا فيه دون أن تتمناه وتتطلع إليه ، وتحلم به لطفلها الصغير، فلم يكن يليق به أقل من قصر كبير مشيد بالحجارة ، له نوافذ كبيرة من البللور ، تحيط به حديقة تتوسطها نافورة . أما بالنسبة لمهنته ، فكان لابد أن يكون على الأقل أستاذا فى الجامعة أو ملكا

وكان يجاور السيدة « اليزابيث » عجوز طاعن فى السن ، أشيب الشعر ، ضئيل الجسم ، لايبرح منزله إلا أحيانا ، فإذا راق له أن يفعل ذلك ، وضع على رأسه قلنسوة تتدلى منها شرابة ، وحمل مظلة خضراء عفى عليها الدهر، صنعت أسلاكها من عظام الحوت ، وكان الأطفال يخشونه ، والكبار يتهامسون فيها بينهم بأنه لابد أن تكون له أسبابه القوية التى تدفعه إلى حياة العزلة التى يحياها ، وكانت تنقضى فترات طويلة لايكاد يشاهده فيها أحد،

إلا أنه قد يحدث أحيانا فى إحدى الأمسيات أن تنبعث من منزله الصغير الخرب موسيقا رقيقة كأنها تخرج من عدد كبير من الآلات الدقيقة المرهفة . وحيئنذ كان الأطفال العابرون يسألون أمهاتهم : أهى ملائكة تلك التى تنشد فى الداخل ، أم تراها جنيات ؟ غير أن أمهاتهم كن يجهلن كل شىء عن هذا الأمر ، فيقلن : « كلا . . كلا ، إنه لابد أن يكون صندوقا موسيقيا . »

هذا الرجل الضئيل الذى كان يعرفه جيرانه باسم « السيد بنسفاجنر » ، كانت تربطه بالسيدة « اليزابيث » صداقة من نوع غريب . والواقع أن أحدهما لم يكن يتحدث إلى الآخر أبدا ، ولكن الشيخ العجوز كان ينحنى انحناءة مليئة بالود كلما عبر نافذتها ، وكانت ترد عليه بإطراقة من رأسها فى عرفان بالجميل ، وفى كثير من الميل إليه . وكان كل منهما يحدث نفسه قائلا : « لو أن الأمور ساءت بالنسبة إلى ، فسوف أذهب بكل تأكيد لطلب المعونة من منزل جارى » فإذا هبط الظلام جلست السيدة « اليزابيث » وحيدة إلى نافذتها ، يعاودها الأسى على زوجها الراحل المحبوب ، أو ربما فكرت فى طفلها المرتقب ، فراودتها الأحلام ، فلا يلبث جارها العجوز أن يفتح نافذته متلطفا ؛ لتنطلق من حجرته المعتمة أنغام ناعمة مريحة فضية مثل نور القمر حين يتسلل بين السحب . أما السيدة « اليزابيث » فكانت تتعهد من جانبها بضعة من نباتات الجيرانيوم القديمة تتسلق نافذته الخلفية، وكان ينسى دائما أن يرويها ، ولكنها كانت دائمة الخضرة ، حافلة بالأزهار ، خالية من أية ورقة ذابلة ؛ لأن السيدة اليزابيث كانت ترعاها فى وقت مبكر كل صباح .

وذات مساء قارس البرد عاصف الريح كان الموسم فيه يتجه صوب

الخريف ، وقد خلا شارع « موستاكر » من الناس ، أحست المرأة المسكينة بالمخاض ، فارتاعت لأنها كانت وحدها تماما ، ولكن عندما أوغل الليل ، أقبلت امرأة عجوز تحمل فى يدها مصباحا ، فدخلت المنزل ، وشرعت تغلى الماء ، وتعد البياضات ، وتقوم بكل مايحتاج إليه طفل يجىء إلى العالم ، واستسلمت السيدة « اليزابيث » للرعاية فى صمت ، ولم تنبس بشىء ، حتى إذا ولد الطفل ، ولف فى قماط ناعم جديد ، ودخل فى أول يوم له على الأرض ، سألت المرأة العجوز : متى جاءت ؟

فأجابتها المرأة : « لقدب أرسلنى السيد بنسفاجنر » وسرعان ماغشى النوم الأم التى أنهكها التعب . وعندما استيقظت فى الصباح ، وجدت لبنا مغليا فى انتظارها وكل شىء فى الحجرة مرتبا فى عناية فائقة ، وإلى جانبها ، رقد ابنها الصغير يصرخ من الجوع . غير أن المرأة العجوز كانت قد رحلت ، فضمت السيدة « اليزابيث » الطفل إلى صدرها ، وسرها أنه جميل قوى . وتذكرت أباه الراحل الذى لم يعش حتى يراه ، فاغرورقت عيناها بالدموع ، ولكنها احتضنت الطفل اليتيم الصغير ، وابتسمت مرة أخرى ، ثم عادت إلى النوم هى وصغيرها . فلما استيقظت ، كان هناك مزيد من اللبن ، وطبق جاهز من الحساء ، ووجدت الطفل ملفوفا فى أغطية نظيفة .

ولم تلبث الأم أن استردت صحتها وعافيتها ، بحيث استطاعت أن ترعى نفسها وطفلها « أغسطس » وأدركت أنه لابد من تعميد ابنها ، ولكنها لا تجد له إشبينًا . وذات مساء ، عندما أقبل الغسق ، وانطلقت الموسيقا العذبة مرة أخرى من المنزل الصغير المجاور ، ذهبت إلى باب « السيد بنسفاجنر » ، وطرقته مترددة ، فاستقبلها بصيحة ودية ، وقال لها : «ادخلى! » وفجأة توقفت الموسيقا ، وفى الحجرة شاهدت مائدة صغيرة

عتيقة، يعلوها مصباح وكتاب . وكل شيء فيها عادى كما ينبغى أن يكون .

قالت السيدة « اليزابيث » : جئت لأشكرك على تلك المرأة الطيبة التى أرسلتها إلىّ وأرغب فى أن أدفع أجرها حتى أستطيع العودة إلى العمل وكسب شيء من المال ، غير أننى مهمومة بشيء آخر فلابد من تعميد الطفل ، وتسميته أغسطس على اسم أبيه ، ولكننى لا أعرف أحدا ، ولا أجد له إشبينا » .

قال جارها وهو يتخلل بأصابعه لحيته التى وخطها الشيب : « أجل . . لقد فكرت فى هذا أيضا ، وأحسب أنه من الخير أن تجدى له إشبينا عطوفا غنيا يمكن أن يتعهده إذا مسك أذى ، إننى وحيد أيضا وعجوز وليس لى سوى أصدقاء قلائل ؛ ولهذا لا أستطيع أن أوصى بأحد ، اللهم إلا نفسى ، إذا تقبلت ذلك .

وكان هذا العرض مبعث سعادة للأم المسكينة ، فشكرت الرجل العجوز ووافقت فى حماسة . وفى يوم الأحد التالى ، حملت الطفل إلى الكنيسة ، حيث قاموا بتعميده ، وهناك ظهرت السيدة العجوز أيضا ، ومنحت الطفل قطعة نقود فضية ، وعندما اعتذرت السيدة اليزابيث عن قبولها ، قالت العجوز : « كلا . . خذيها ، فأنا امرأة عجوز ولدى ما أحتاج إليه . . . ولعل هذه القطعة من النقود تجلب له الحظ ، وأنا سعيدة إذا أسديت للسيد بنسفاجنر هذا الجميل ، فنحن صديقان قديمان »

وذهبا معا إلى حجرة السيدة « اليزابيث » ، فقدمت القهوة لضيفها ، وكان « السيد بنسفاجنر » قد أحضر كعكة ، هكذا تحولت المناسبة إلى حفل تعميد حقيقى . وبعد أن فرغوا من الطعام والشراب ، وكان الطفل قد خلد

إلى النوم منذ أمد بعيد ، قال الشيخ العجوز على استحياء : « الآن وقد أصبحت إشبين أغسطس الصغير ، كنت أحب أن أهدى إليه قصر ملك ، وأن أنفحه كيسا مليئا بالقطع الذهبية ، إلا أن هذه أشياء لا أملكها ، ولايسعنى إلا أن أضيف قطعة فضية إلى القطعة التى جادت بها جارتنا ، وعلى كل حال ، ماأستطيع أن أفعله له ، سأفعله ، وليس من شك أنك أردت لابنك الصغير ماتشتهيه الأم من أشياء جميلة رائعة . والآن ، فكرى جيدا فى الشىء الذى يبدو لك أنه أفضل ماتشتهينه له ، وسأدبر الأمر ؛ لكى يتحقق ماتشتهين . لديك أمنية واحدة لطفلك أيا كانت ، أمنية واحدة فحسب ، أمعنى الفكر . وفى هذا المساء ، عندما تسمعين الموسيقا من صندوقى ، اهمسى بأمنيتك في الأذن اليسرى لطفلك الصغير ، وستتحقق الأمنية . »

وماكاد ينتهى من قوله ، حتى خرج مغادرا الحجرة تصحبه الجارة العجوز، تاركين السيدة اليزابيث فى حالة من الذهول . ولولا أنها أبصرت قطعتى النقود فى المهد والكعكة على المائدة ، لظنت أن الأمر لايعدو أن يكون حلما . جلست إلى جوار المهد ، وهى تهز طفلها ، على حين استغرقت فى التأمل واستعراض كثير من الأمنيات الجميلة . وخطر لها لأول وهلة أن تجعله غنيا وسيما ، ثم خطر لها أن تجعله قويا قوة خارقة ، ثم لماحا، ذكيا ، ولكنها شعرت فى كل اختيار بشىء من التردد ، وانتهت أخيرا إلى أن هذا كله لايعدو أن يكون مزاحا أراد العجوز أن يداعبها به .

وساد الظلام فعلا ، وكاد النعاس يغلبها وهى جالسة بجوار المهد ، فقد أنهكها التعب على إثر قيامها بدور المضيفة ، ومن متاعبها ، وتفكيرها فى تلك الأمنيات الكثيرة . وفجأة تناهت إليها من الباب المجاور ، موسيقا

لطيفة ، أجمل وأرق من أية ألحان يمكن أن تنبعث من صندوق موسيقا . وأجفلت السيدة « اليزابيث » عند سماعها ذلك الصوت ، وتذكرت . وآمنت الآن مرة أخرى بجارها « السيد بنسفاجنر » وبهديته بوصفه إشبينا ، ولكنها كلما أمعنت الفكر ، واشتدت رغبتها فى أن تستقر على أمنية ، اشتد عقلها حيرة ، وعجزت عن اختيار أى شىء .

وجدت نفسها فى كرب شديد ، فانسكبت الدموع من عينيها ، وهناك ازدادت الموسيقا نعومة وخفوتا ، وأدركت أنها إذا لم تبد أمنيتها فى تلك اللحظة ، فقد يفوت الأوان .

تنهدت بصوت مرتفع ، وانحنت على الطفل ، وهمست فى أذنه اليسرى : ابنى الصغير ، أتمنى لك - وكلما ازدادت الموسيقا العذبة خفوتا ، استبد بها الفزع ، فقالت مسرعة : « أتمنى لك أن يحبك كل إنسان » .

حينئذ تلاشت التوترات جميعا ، وخيم صمت رهيب على الحجرة المعتمة، فانحنت على المهد باكية ، وقد استولى عليها الجزع والخوف ، فهتفت قائلة : آه ! الآن وقد تمنيت لك خير ما أعرف ، ربما لم يكن ذلك هو الشىء الصحيح ؛ ذلك أنه لو أحبك الجميع ، وأحبك كل إنسان ، فلن يحبك أحد مثلما تحبك أمك .

وشب أغسطس « صبيا وسيما أشقر الشعر ، تتقد عيناه نشاطا وحيوية ، تدلله أمه ، ويحبه كل إنسان ، ولم تلبث السيدة اليزابيث أن أدركت أن أمنية يوم العماد التى تمنتها لطفلها أخذت تتحقق ؛ إذ ماكان الطفل الصغير يبلغ من العمر مايكفيه للسير فى شوراع المدينة حتى كان كل من يلقاه يراه وسيما ذكيا مفعما بالحيوية ، فيربت على يده ، ويبدى له إعجابه دون مواربة .

وكانت الأمهات الشابات يبتسمن له ، والنسوة العجائز يمنحنه التفاح ، فإن أظهر شيئا من المشاكسة ، لم ير أحد فى ذلك شيئا من الخطأ ، فإذا كان الخطأ واضحا للعيان ، كان الناس يهزون أكتافهم قائلين : « إن المرء لايملك حقا أن يأخذ شيئا على هذا الصبى الحبيب » .

وكان الأشخاص الذين شاهدوا الصبى الوسيم يذهبون لزيارة أمه ، وبعد أن كانت تشعر بالوحدة الشديدة ولاتقوم بحياكة الثياب للناس إلا فى القليل النادر ، أصبح لها الآن من الزبائن فوق ما كانت تتمنى ، وسارت الأمور معها ومع الصبى على خير وجه ، وكلما خرجا للسير معا ، ابتسم الجيران لهما وحيوهما ، وأقبلوا على الطفل المحظوظ يداعبونه .

أما أفضل شيء فهو ماحدث لأغسطس عند الباب المجاور عند أبيه الروحى ؛ فقد كان « السيد بنسفاجنر » يدعوه أحيانا إلى بيته فى المساء ، عندما يهبط الظلام ، وكان النور الوحيد فى الحجرة شعلة صغيرة حمراء تحترق فى الفراغ الأسود من المدفأة ، فكان الرجل العجوز يجلس الصبى إلى جواره على سجادة من الفراء مفروشة على الأرض ؛ ليقص عليه حكايات طويلة عندما كان الاثنان يحملقان فى ألسنة اللهيب الهادئة . وفى بعض الأحيان ، عندما كانت قصة طويلة تقترب من نهايتها ، ويوشك النعاس أن يغلب الصبى على أمره ، فأخذ ينظر إلى النار بعينين نصف مغمضتين ، كانت تنساب فى الظلام موسيقا بوليفونية عذبة ، فإذا أنصت إليها الاثنان زمنا طويلا ، امتلأت الحجرة فجأة بملائكة صغار متألقين يطوفون فى دوائر بأجنحة ذهبية لامعة ، ويرقصون أزواجا أزواجا فى نشاط وحمية ، وهم يغنون فى الوقت نفسه . وتجاوبت جدران الحجرة كلها بنمئات من ألحان الفرح والجمال يشيع فيها الصفاء والانسجام . وكان هذا أروع مامربتجربة

«أغسطس » وعندما كان يتذكر طفولته فيما بعد ، كانت هذه الحجرة المعتمة الهادئة التى عاش فيها أبوه الروحى العجوز ، وألسنة اللهب الحمراء فى المدفأة ، والموسيقا ، والتحليق السحرى المرح لتلك الكائنات الملائكية بأجنحتها الذهبية - كان هذا كله هو ماتحفل به ذاكرته ، ويجعله يشعر بالحنين إلى الوطن .

وكلما شب الصبى عن الطوق ، كان الأسى ينتاب الأم فى كثير من الأحيان ، ويدفعها إلى التفكير فى ليلة التعميد تلك ، وكان أغسطس يجرى مرحا فى الشوارع المجاورة ، والجميع يرحبون به ، ويقدمون له البندق والكمثرى والحلوى واللعب ، وكل صنوف المأكولات والمشروبات ، ويجلسونه على حجورهم ، ويسمحون له بقطف الأزهار من حدائقهم ، وكثيرا ما كان يعود متأخرا إلى منزله فى المساء ، فيزيح غاضبا ماتقدمه له أمه من الحساء . فإذا أحست بالشقاء ، ولجأت إلى البكاء ، كان يبدو عليه الضجر ، ويأوى إلى فراشه حانقا . وإذا ضربته أو عاقبته كان يصرخ ، ويشكو بصوت مرتفع بأن كل الناس يعاملونه بلطف وعطف فيماعدا أمه . كانت تغضب على ابنها حقا فى تلك الأوقات ، ولكنها كانت فيما بعد ، حين ينام الطفل بين وسائده وضوء الشمعة يتراقص فوق محياه الطفولى البرىء ، كانت تتبدد من قلبها كل غلظة ، فكانت تقبله فى حذر خوفا من إيقاظه . كان حب الناس جميعا لأغسطس غلطتها هى ، وفى بعض الأحيان كان يخطر لها خاطر مشوب بالندم بل بالقلق أحيانا - بأنه كان من الأفضل لو أنها لم تَتَمَنَّ تلك الأمنية أبدا .

وذات مرة كانت تجلس إلى جوار نافذة « السيد بنسفاجنر » التى يتسلقها نبات الجيوانيوم ، وقد جعلت تقص الأوراق الذابلة بمقص صغير ، حين

تناهى إليها صوت ابنها فى الفناء الذى يمتد خلف المنزلين ، فاستدارت لتنظر إليه ، كان يرتكن إلى الجدار وقد علت وجهه الوسيم نظرة ازدراء ، وأمامه وقفت فتاة أطول منه تقول فى إغراء : « تعال الآن ، ستكون ظريفا ، ألا تريد ذلك ، وأعطنى قبلة ؟ »

قال أغسطس وهو يضع يديه فى جيوبه : « ولكنى لا أريد » فألحت عليه قائلة : « أوه ! أرجوك أن تفعل ، وسأعطيك شيئا جميلا » . سألها الصبى : « ماذا ستعطيننى ؟ »

فأجابت على استحياء : « لدى تفاحتان . »

قال فى ازدراء : « لا أريد أى تفاح » وهم بمغادرة المكان . إلا أن الفتاة أمسكت بذراعه ، وقالت متزلفة : « انتظر . . عندى أيضا خاتم جميل » فقال أغسطس : « دعينى أراه ! »

عرضت عليه خاتمها ، فأمعن النظر إليه ، ثم خلعه من إصبعها، ووضعه فى أصبعه ، وعرضه للضوء ، وأومأ برأسه : موافق . ثم قال بفتور : « فليكن ، تستطعين أن تأخذى قبلة» ، وألقى قبلة سريعة على ثغر الفتاة .

قالت فى ثقة وهى تتشبث بذارعه : « ستأتى وتلعب معى الآن ، أليس كذلك ؟ »

ولكنه دفعها جانبا وصاح فى ضجر : « اتركينى فى سلام ، ألا تستطيعين ذلك ؟ لدى أخريات لألعب معهن . » وشرعت الفتاة فى البكاء ، وهمت بمغادرة الفناء ، فأتبعها النظر وقد ارتسم على وجهه تعبير الحنق والضجر،

ثم أدار الخاتم فى إصبعه ، وجعل يتفحصه ، وشرع فى الصفير ، سائرا على مهل بعيدا عن المكان .

وقفت الأم ساكنة ومقص الحديقة فى يدها ، وقد صدمتها الفظاظة والقسوة التى عامل بها ابنها حب شخص آخر ، فانصرفت عن الزهور ، وهزت رأسها وأخذت تردد لنفسها مرارا وتكرارا :

«لماذا ؟ إنه شرير ، لايملك قلبا على الإطلاق . »

وعندما عاد « أغسطس » إلى البيت بعد قليل ، عنفته ، ولكنه نظر إليها ضاحكا بعينيه الزرقاوين ، ولم يظهر أية علامة على الشعور بالذنب ، ثم أخذ يغنى ، وأبدى لها من العطف والحنان ، ومن الدعابة والرقة ، بحيث لم تتمالك نفسها من الضحك ، وقررت فى سريرة نفسها أن المرء لاينبغى بالضرورة أن يأخذ مايفعله الأطفال مأخذ الجد .

إلا أن الصبى لم يفلت تماما من العقاب على أفعاله السيئة . وكان الشخص الوحيد الذى سيحسب له حسابا هو السيد بنسفاجنر أبوه الروحى ، فإذا ذهب فى المساء لرؤيته ، قال له أبوه الروحى : « اليوم ، لن تشتعل نار فى المدفأة ، ولن توجد موسيقا ، والملائكة الصغار غاضبون؛ لأنك كنت سيئا . »

وعندئذ كان الصبى يعود إلى البيت صامتا ، فيرتمى على سريره ، باكيا ، وفى الأيام التالية ، يحاول جاهدا أن يكون صالحا طيبا .

ومع ذلك ، كانت نيران المدفأة أقل اشتعالا عن ذى قبل ، كما أنه لم يكن يستطيع أن يتزلف إلى أبيه الروحى بالدموع والعناق . وعندما بلغ «أغسطس» الثانية عشرة من عمره ، كان التحليق الملائكى السامر في حجرة

الشيخ قد أصبح حلما بعيد المنال ، فإذا أتاه هذا الحلم فعلا مصادفة أثناء الليل ، فإنه كان يبدو فى اليوم التالى شرسا مشاكسا بصورة مضاعفة ، ويأمر وينهى أصدقاءه الكثيرين المحيطين به ، وكأنه فيلد ماريشال لايعرف الرحمة.

وكانت أمه سئمت منذ أمد طويل ماتسمعه من كل إنسان عن وسامة ابنها وسحره ، والواقع أنه لم يكن بينها وبينه سوى المتاعب . وعندما جاء مدرسه إليها ذات يوم وأخبرها بأنه يعرف شخصا يمكن أن يدخل ابنها مدرسة بعيدة ، ذهبت إلى جارها تطلب منه المشورة ، وبعد ذلك بقليل ، وفى صباح يوم من أيام الربيع ، وقفت مركبة أمام الباب ، فاستقلها «أغسطس » وكان يرتدى حلة جديدة أنيقة ، بعد أن ودع أمه وأباه الروحى والجيران جميعا ؛ لأنه كان مسافرا إلى العاصمة ليدرس هناك . وكانت أمه قد صففت شعره الأشقر للمرة الأخيرة ، ومنحته بركتها . وانطلقت به الجياد، ورحل « أغسطس » إلى العالم الرحيب .

وبعد أعوام عديدة ، عندما أصبح « أغسطس » طالبا فى الكلية يضع على رأسه قلنسوة حمراء ، وينبت له شارب ، عاد بالمركبة مرة أخرى إلى بيته القديم ؛ لأن أباه الروحى كتب إليه قائلا : « إن أمه قد اشتد بها المرض، وإنها لن تعيش طويلا .

وبلغ الشاب بيته فى المساء . واندهش الناس وهم يرونه ينزل من المركبة يتبعه الحوذى حاملا حقيبة ضخمة إلى المنزل . وكانت السيدة « اليزابيث » تعانى سكرات الموت فى الحجرة العتيقة وذات السقف المنخفض ، فلما أبصرها الطالب الوسيم وقد علاها الشحوب والذبول فوق الوسائد البيضاء، ولاتستطيع أن تحييه إلا بنظرات عينيها الهادئتين ، ألقى نفسه على فراشها

منتحبا ، وأخذ يقبل راحتيها الباردتين ، وركع إلى جوراها الليل بأكمله ، حتى تثلجت يداها ، وفارقت عيناها الحياة .

وما إن ووريت التراب ، حتى صحبه أبوه الروحى بنسفاجنر « من ذراعه، ودخل معه إلى بيته الصغير الذى بدا للشاب أقفر وأظلم عن ذى قبل ، وعندما جلسا معا وقتا طويلا ، وكانت النافذة الصغيرة هى وحدها التي تومض بضوء خافت فى الظلام ، جعل الرجل العجوز الضئيل يتخلل لحيته البيضاء بأصابعه النحيلة ، ثم خاطب أغسطس قائلا : « سأوقد نارا فى المدفأة ، وعندئذ لن نحتاج إلى المصباح وأنا أعلم أنه ينبغى لك أن ترحل غدا ، والآن وقد ماتت والدتك ، فلن تعود فى وقت قريب جدا » .

وما إن قال هذا ، حتى أشعل نارا ضئيلة فى المدفأة ، وسحب مقعده بالقرب منها ، ووضع معقد « أغسطس » قريبا من مجلسه . وجلسا على هذا النحو فترة أخرى طويلة ينظران إلى الجمرات المتوهجة ، حتى هدأ الشرر المتطاير ، وهنا قال الرجل العجوز متلطفا : « وداعا ياأغسطس ، أتمنى لك كل خير . كانت لك أم صالحة صنعت من أجلك أكثر مما تعلم . وكم كان يسرنى أن أصنع لك تلك الموسيقا مرة أخرى وأن أريك الصغار المباركين ، ولكنك تعلم أن هذا لم يعد ممكنا الآن . ولكن ينبغى ألا تنساهم ، وأن تتذكر أنهم يواصلون الغناء ، وربما استطعت أن تسمعهم ثانية إذا جاء وقت تمنيت فيه ذلك بقلب وحيد مشتاق . والآن ، أعطنى يدك يابنى ؛ فأنا عجوز ، وينبغى أن أذهب للفراش » .

وصافحه « أغسطس » ولكنه لم يستطع الكلام . ورجع حزينا إلى بيته الصغير المقفر ، ورقد للمرة الأخيرة فى منزله العتيق ، ولكنه قبل أن ينام ، خيل إليه أنه سمع مرة أخرى موسيقا طفولته العذبة ، وإن تكن بعيدة

جدا، خافتة جدا . وفى صباح اليوم التالى رحل عن بيته ، ولم تسمع مدينته شيئا عنه بعد ذلك لأمد طويل .

ولم يلبث أن نسى هو أيضا أباه الروحى بنسفاجنر والملائكة الصغار ؛ فقد كان يحيا حياة مترفة يجد فيها متعة فائقة . ولم يكن هناك من يضارعه فى أسلوبه حين يركب خلال شوارع المدينة ملوحا للفتيات المتيمات به ، باعثا لهن بنظراته الخفية التى تثير غيظهن ، ومامن أحد كان يستطيع أن يمتطى جواده بمثل ذلك المرح والرشاقة ، وما من أحد كان يمكن أن يجاريه فى غروره واختياله أثناء مجالس القصف والشراب التى تنعقد فى الحديقة فى ليالى الصيف . وكانت عشيقته الأرملة الغنية تمده بالأموال والثياب والخيل ، وبكل مايحتاج إليه ويشتهيه ، وقد سافر معها إلى باريس وروما ، ورقد على ملاءاتها الحريرية ، وهذه العشيقة كانت على كل حال - هى الابنة الناعمة الشقراء لمواطن فى العاصمة ، وكان يلقاها متهورا فى حديقة أبيها ، فإذا سافر إلى الخارج بعثت إليه رسائلها طويلة حارة .

وجاء حين لم يعد فيه ، فقد وجد أصدقاء له فى باريس ، ولما كان قد سئم عشيقته الثرية ، وأصبحت الدراسة بالنسبة إليه عبئا ثقيلا منذ أمد بعيد ، فقد مكث فى الخارج ، وعاش حياة الطبقة المترفة ، فاقتنى الجياد والكلاب والنساء ، وبعثر المال واكتسب المال على موائد الميسر ، وكان الناس يتبعونه فى كل مكان ، وكأنهم أسراه ، كانوا يخدمونه ، فيبتسم ويقبل كل شىء ، كما قبل خاتم الفتاة الصغيرة من قبل ، وبقى سحر الأمنية التى تمنتها أمه فى عينيه وعلى شفتيه ، فكانت النسوة يدللنه فى حنان ، وكان أصدقاؤه مهووسين به ، ولم ينطق أحد - ونادرا ما فطن هو نفسه - أن فؤاده أصبح فارغا ، جشعا ، وأن روحه عليلة ، ممتلئة بالألم ، وفى بعض

الأحيان، كان الحب يضجره فيهرب متنكرا إلى مدن أجنبية ، إلا أنه كان يجد الناس تافهين فى كل مكان ، ومن اليسير غزوهم ، وفى كل مكان كان يزدرى الحب الذى يتبعه بهذه اللهفة ، والذى يرضى بهذا القليل . وكثيرا ماكان يشعر بالاشمئزاز من الرجال والنساء الذين لايملكون مزيدا من الكبرياء وعزة النفس ، فكان يقضى أياما بأكملها وحيدا مع كلابه فى أكواخ الصيد الجميلة المتناثرة بين الجبال ، فإذا طارد وعلا واصطاده ، كان ذلك أجلب لسعادته من امتلاك حسناء أفسدها التدليل .

وأثناء إحدى رحلاته البحرية ، قابل مصادفة زوجة سفير شابة ، كانت سيدة متحفظة ، هيفاء القوام ، تنتمى إلى طبقة النبلاء الشمالية ، وتقف متميزة تميزا واضحا بين كثيرات من النساء الحريصات على اتباع كل ماهو حديث ، والرجال الدنيويين ، كانت شامخة ، معتزة بنفسها فى هدوء ، وكأنها لا تجد ندا لها ، وعندما راقبها ورأى أن نظراتها قد تجاوزته هو أيضا فى عجلة وبلا مبالاة ، خيل إليه أنه يجرب الحب لأول مرة ، وعقد عزمه على الفوز بقلبها ، ومنذ ذلك الحين ـ وفى كل ساعة من ساعات النهار ـ مكث قريبا منها ، وأمام عينيها ، ولما كان هو نفسه محاطا دائما بالمعجبين به الذين يرجون مصاحبته ، فقد ظل هو والسيدة الجميلة اللامبالية المركز الذى يتحلق حوله جماعة المسافرين ، وكأنه أمير لأميرته ، بل إن زوجها الأشقر نفسه كان يعامله باحترام ، ويتجشم العناء لإرضائه .

ولم يتمكن من الانفراد بهذه الفاتنة الغريبة ، حتى ألقت السفينة مرساها فى ميناء جنوبى ، فبارحها المسافرون جميعا ؛ ليقضوا ساعات متجولين فى المدينة الأجنبية ، وليشعروا بصلابة الأرض تحت أقدامهم مرة أخرى ، إلا أنه لم يتحرك من جوار محبوبته ، وأفلح أثناء اختلاط الناس واضطرابهم فى سوق

المدينة أن يتجاذب معها أطراف الحديث . وكانت دروب صغيرة معتمة لاحصر لها تصب فى ذلك الميدان ، فصحبها إلى واحد منها ، ورافقته فى ثقة، ولكنها عندما أدركت فجأة أنها وحيدة معه ، توترت أعصابها ، وأخذت تتلفت على رفاقها فى الرحلة ، فاستدار إليها متلهفًا ، وأخذ يدها المترددة بين يديه ، وزين لها أن تترك السفينة وتهرب معه .

وعلاها الشحوب ، وظلت عيناها مطرقتين إلى الأرض ، ثم قالت فى نعومة : « ليس هذا من الفروسية فى شىء . أرجو أن تسمح لى بنسيان ماقلته فورا . »

فصاح أغسطس : « لست فارسا ، إنما أنا عاشق ، ولايعرف العاشق شيئا سوى معشوقته ، ولا يفكر إلا فى أن يكون معها . ياسيدتى الجميلة، اهربى معى وسنكون سعيدين .

ألقت عليه نظرة رزينة مؤنبة من عينيها الزرقاوين الصافيتين ، ثم همست قائلة : « كيف عرفت أننى أحببتك ؟ أنا لا أنكر ذلك ، أنا أحبك ، وقد تمنيت كثيرا أن تكون زوجى ؛ فأنت أول من أحببته بكل قلبى . وا أسفاه ! كيف يمكن أن يجنح الحب إلى كل هذا الضلال ! وما كنت لأفكر أبدا فى أنه من الممكن بالنسبة لى أن أحب رجلا ليس طاهرا أو خيرا . ولكننى أوثر ألف مرة أن أبقى مع زوجى الذى لا أحبه كثيرا ، ولكنه فارس كامل الشرف والفروسية ، وهما صفتان لا تعرفهما . والآن ، لا تتفوه بكلمة أخرى ، بل عد إلى السفينة ، وإلا فسوف أنادى على الغرباء لحمايتى من وقاحتك » .
ومهما يكن من غضبه وتوسلاته ، فإنها أشاحت عنه ، وهمت بالسير وحدها لولا أنه لحق بها صامتا ، ورافقها حتى بلغا السفينة . وهناك أنزل حقيبته الى الشاطىء دون أن يودع أحدا .

ومنذ ذلك الحين ، تبدل خط هذا الرجل الذى أحبه الناس كثيرا ، فأصبحت الفضيلة والشرف شيئين يبغضهما كل البغض ، وداس عليهما تحت قدميه ، وأخذ يسرى عن نفسه بإغواء النساء الفضليات بخدعه السحرية ، واستغلال الرجال الذين لاترقى إليهم الشبهات ، فيتخذ منهم أصدقاء ، وسرعان ماينقلب عليهم ، مبديا لهم احتقاره . وكم من نساء وفتيات دفعهن إلى الفقر ثم تنكر لهن ، وكان يبحث عن الشبان الذين ينتمون إلى بيوت نبيلة فيجتهد فى إغوائهم وإفسادهم ما وسعه الإغواء والإفساد . ولم تكن ثمة متعة لم ينغمس فيها ولم يستقطرها ، أو رذيلة لم يكتسبها ثم ينبذها ليقارف غيرها ، إلا أن قلبه كان يخلو من كل سعادة ، ولايتردد فى روحه أى صدى للحب الذى كان يستقبله فى كل مكان .

وفى بيت ريفى فخم يقع على شاطىء البحر ، كان يعيش ملوما محسورا ، وكان الرجال والنساء الذين يقبلون لزيارته هناك ، يعذبهم بنزواته الوحشية ، وازدرائه الشديد . وكان يجد لذته فى الحط من قدر الناس ومعاملتهم بأقسى أنواع الاحتقار ، وكان متخما إلى درجة الاشمئزاز بالحب الذى لايسعى إليه ، ولايرغب فيه ، ولا يستحقه ، والذى يحيط به حيثما ذهب ، كما كان يشعر بعبث الحياة المبعثرة المهوشة التى لم يعط فيها أبدا ، وإنما يأخذ دائما .

وفى بعض الأحيان ، كان يفرض الجوع على نفسه فترة طويلة ؛ لكى يشعر بشهية حقيقية فيما بعد ، ولكى يشبع شهوته .

وانتشرت الأنباء بين أصدقائه بأنه عليل ، يحتاج إلى الهدوء والعزلة ، وانهالت عليه الرسائل ، ولكنه لم يكن يقرؤها أبدا ، فكان أصحابه الذين أزعجتهم هذه الحالة يستفسرون من الخدم عن صحته ، ولكنه كان يجلس

وحيدا ، غارقا فى همومه فى القاعة التى تشرف على البحر . . . وقد امتدت حياته الخاوية اليائسة وراءه ، قاحلة خالية من الحب مثل هذا البحر الرمادى المالح المتلاطم الذى يمتد أمامه . كان وجهه بشعا ، وهو قابع فى مقعده مطلا من النافذة العالية ، يحاسب نفسه . وكانت أسراب النورس البيضاء تتدافع بفعل الريح صوب الشاطئ ، فأخذ يتابعها بعينين تخلوان من كل فرح وتعاطف . وما إن وصل إلى ختام تأملاته ، ونادى على خادمه ، حتى انفرجت شفتاه عن ابتسامة فظة شريرة ، وأصدر أوامره بأن يدعى أصدقاؤه جميعا إلى وليمة فى يوم معلوم ، وكان ينوى أن يثير فى قلوبهم الرعب وأن يسخر منهم عند وصولهم برؤية المنزل خاويا ، ترقد فيه جثته ، فقد اعتزم أن ينهى حياته بالسم .

وفى مساء اليوم الذى حدده لإقامة الوليمة ، صرف خدمه جميعا عن المنزل ، فران الصمت تماما على الحجرة الواسعة ، وانسحب إلى حجرة نومه ، حيث مزج قطرات من السم الناقع فى كأس الخمر القبرصية ، ثم رفعه إلى شفتيه .

وفي اللحظة التى أوشك فيها أن يتجرع السم ، سمع طرقا على الباب ، فلما لم يجب ، فتح الباب ، ودخل رجل عجوز ضئيل الجسم ، اتجه مباشرة إلى « أغسطس » وانتزع الكأس الممتلئ من يديه بعناية ، وقال بصوت مألوف : « نعمت مساء يا «أغسطس » ، كيف تسير بك الأحوال ؟ » .

ابتسم « أغسطس » ساخرا ، وقال بعد أن تناوبته الدهشة والغضب ، والخجل أيضا : « السيد بنسفاجنر » ! أما زلت حيا ؟ لقد انقضى وقت طويل ، ومع ذلك يبدو بالفعل أن سنك لم يكبر ، ولكنك تزعجنى فى هذه

اللحظة ، أيها الشيخ العجوز ، كنت متعبا ، وقد هممت بشرب منوم» .

فأجابه أبوه الروحى هادئا : « إذن ، فأنت تريد أن تشرب منوما ، وأنت على حق ، فهذا هو النبيذ الأخير الذى مازال فى الإمكان أن يساعدك . ولكن قبل أن تفعل هذا سنتحدث لحظة ، يابني ، ولما كانت تنتظرنى رحلة طويلة ، فلن يضيرك أن أنعش نفسى برشفة صغيرة » .

وما إن أخذ الكأس ورفعه إلى شفتيه ، وقبل أن يتمكن « أغسطس » من منعه أفرغه كله فى جرعة واحدة .

وشحب وجه أغسطس شحوب الأموات ، فوثب صوب أبيه الروحى ، وهزه من كتفيه ، وصاح بحدة : « أيها العجوز ، أتدرى ماذا تجرعت لتوك؟» .

فأطرق السيد « بنسفاجنر » برأسه الأشيب الذكى وابتسم قائلا : « إنها خمر قبرصية ، على ماأظن ، وهى ليست رديئة . يبدو أنك لست معسرا ولكن ، ليس لدى وقت طويل ، ولن أحتجزك طويلا إذا أنصت إلى فحسب » .

استولى الارتباك على « أغسطس » فتفرس فى عينى أبيه الروحى اللامعتين مرتاعا متوقعا أن يراه منهارا فى أية لحظة . غير أن السيد « بنسفاجنر » جلس مرتاحا فوق مقعد ، وأومأ برأسه لصديقه الشاب إيماءة رقيقة .

« أتخشى أن تؤذيني هذه الجرعة من النبيذ؟ لا عليك ، فلتهدأ بالاً، لطيف منك أن تنزعج من أجلى . هذا شيء لم أتوقعه أبدا ، والآن دعنا نتحدث مرة أخرى كما كنا نفعل فى الأيام الخوالى . يبدو لى أن حياة النزق

والطيش قد أتخمتك ؟ أستطيع أن أفهم هذا ، وعندما أرحل ، تستطيع أن تملأ كأسك ، وأن تتجرعه حتى الثمالة »

ولكن ، قبل هذا ، أريد أن أخبرك بشيء .

أسند « أغسطس » نفسه إلى الجدار ، وأنصت لصوت الرجل العجوز وهو ينبعث رقيقا عطوفا ، هذا الصوت المألوف لديه منذ الطفولة أثار أصداء الماضى بحيث تجاوبت فى روحه . وغمره شعور عميق بالخجل والحسرة وهو يرجع ببصره إلى شبابه البرىء

قال العجوز : « لقد تجرعت سمك ؛ لأننى الشخص المسئول عن تعاستك ، ففى أثناء تعميدك تمنت أمك أمنية من أجلك ، فحققتها لها ، وإن كانت أمنية حمقاء ، ولست بحاجة إلى أن أصفها لك بهذا الوصف ، لقد أصبحت لعنة ، كما تدرك ذلك بنفسك . ويؤسفنى أنها تحولت على هذا النحو ، ومن المؤكد أننى سأكون سعيدا لو عشت لأراك جالسا إلى جوارى مرة أخرى ، فى البيت ، أمام المدفأة مصغيا إلى غناء الملائكة الصغار. هذا شىء لم يعد يسيرا ، وفى هذه اللحظة قد يبدو لك من المحال أن يعود قلبك إلى صحته ونقائه ومرحه . ولكن هذا ممكن ، وأنا أرجوك أن تحاول. إن أمنية أمك المسكنية لم تلائمك تماما ياأغسطس . ماذا لو سمحت لى الآن أن أحقق لك أمنية أيضا ، أية أمنية ؟ من المرجح أنك لن تتمنى المال أو الأملاك أو السلطان أو . . . حب النساء ، فقد كان لديك من هذا كله مايكفى . فكر جيدا ، واذا كنت تعتقد أنك تعرف رقية سحرية يمكن أن تجعل حياتك التي تبددت أجمل وأفضل ، وتستطيع أن تجعلك سعيدا مرة أخرى ، فتمنَّها إذنْ لنفسك » .

جلس « أغسطس » صامتا مستغرقا فى التفكير ، ولكنه كان مرهقا قانطا، فقال بعد برهة : « أشكرك ، يا أبى الروحى بنسفاجنر ، ولكنني لا أعتقد أن هناك مشطا يمكن أن يسوى تشابكات حياتى ، ومن الخير لى أن أفعل ما كنت أدبره حين أتيت .

ولكننى أشكرك على كل حال ، على مجيئك » .

قال العجوز متفكرا : « أجل ، أستطيع أن أتصور أن هذا الأمر ليس يسيرا عليك ، ولكن ، لعلك تستطيع أن تتصور الشيء الأساسى الذى ينقصك ، أو لعلك تستطيع أن تتمنى تلك الأيام التى كنت تأتى فى المساء لترانى فيها ، أثناء حياة أمك - من حين الى آخر . فمهما يكن من أمر ، كنت سعيدا فى بعض الأحيان ، أليس كذلك ؟ »

قال « أغسطس » موافقا بإطراقة من رأسه : « بلى . . . فى تلك الأيام » . وتراءت له صورة شبابه المشرق من بعيد ، تراءت له شاحبة كأنها تنعكس من مرآة عتيقة . « إلا لأنها لايمكن أن تعود ثانية . ولا أستطيع أن أتمنى أن أصبح طفلا مرة أخرى . لماذا ؟ قد يبدأ كل شىء فى العودة مرة أخرى من جديد» .

« كلا ، أنت على حق تماما ، هذا شىء لامعنى له على الإطلاق ، ولكن، فكر فى الوقت الذى كنا فيه معا فى البيت ، وفى الفتاة المسكينة التى اعتدت أن تزورها ليلا فى حديقة أبيها ، عندما كنت طالبا فى الكلية ، وتذكر أيضا السيدة الجميلة ذات الشعر الأشقر التى سافرت معها ذات مرة على سفينة فى البحر ، وتذكر كل اللحظات التى كنت فيها سعيدا ، وعندما كانت الحياة تبدو فيها زاهية ثمينة . ربما أدركت ما كان يسعدك فى تلك اللحظات ، وهنا تستطيع أن تتمناه . افعل ذلك من أجلى يابنى ! »

أغمض « أغسطس » عينيه ، وعاد ببصيرته إلى حياته ، كما ينظر المرء وراءه فى دهليز معتم صوب نقطة بعيدة من الضوء ، فرأى كيف كان كل شىء حوله مشرقا جميلا ، ثم أخذت العتمة تغشاه شيئا فشيئا ، حتى وجد نفسه قائما فى ظلام دامس، ولم يعد هناك مايمكن أن يبعث فيه الأمل . وكلما عاد بفكره إلى الوراء وتذكر ، بدا ذلك الضوء المتوهج الضئيل أكثر جمالا ، وأشد روعة وإغراء . وأخيرا تعرف عليه ، وبدأت الدموع تنسكب من عينيه . قال لأبيه الروحى : « سأحاول ، ولكن ارفع عنى ذلك السحر القديم الذى لم ينفعنى ، وامنحنى بدلا منه القدرة على حب الناس » .

وركع بين يدى صديقه القديم باكيا ، وأحس - وهو يجثو - بحبه لذلك الرجل العجوز يشتعل بين جنبيه ، فجاهد للتعبير عنه بكلمات منسقة وحركات . وهنا احتضنه أبوه الروحى ، ذلك الرجل الضئيل - بين ذراعيه ، وحمله إلى فراشه ، وأرقده عليه ، وربت عليه شعره وعلى جبينه المحموم .

وهمس بصوت خافت : « هذا حسن ، هذا حسن يابنى ، وسوف يسير كل شىء على مايرام . »

وحيئنذ أجس « أغسطس » بإرهاق ساحق لنوم عميق . وانصرف الرجل العجوز صامتا من المنزل الخاوى .

واستيقظ « أغسطس » على ضجة مزعجة تتردد فى جنبات المنزل ، فنهض من فراشه ، وفتح باب حجرة نومه ، فوجد القاعة والحجرات جميعا غاصة بأصدقائه الذين أقبلوا لحضور حفلته ، فوجدوا المكان مهجورا . وهنا استحوذ عليهم الغضب وخيبة الأمل ، فلما أقبل عليهم ، معتزما أن يكسبهم جميعا بابتسامة ودعابة كما اعتاد دائما ، أدرك فجأة أن قدرته على

فعل هذا قد فارقته . فما كادوا يرونه حتى شرعوا جميعا يتصايحون فى وجهه ، فابتسم ابتسامة تنم عن العجز ، وبسط لهم كفيه ضارعا إليهم فى محاولة للدفاع عن نفسه ، ولكنهم تقدموا صوبه ساخطين .

صاح أحدهم : « أنت تخدعنى ! أين المال الذى اقترضته منى ؟ وهتف آخر : « والجواد الذى استعرته منى ؟ » ، وصرخت امرأة جميلة ثائرة : « كل الناس قد اطلعوا على أسرارى الآن ؛ لأنك أفشيت مابيننا فى كل مكان . آه! كم أكرهك يأيها المسخ ! » وزعق شاب آخر غائر العينين ، وقد شوه البغض ملامحه : « أنت تعلم ماصنعته بى ، أيها الوغد ، أيها المفسد للشباب ! »

وهكذا سار الحال على هذا المنوال ، كل واحد منهم انهال بالشتائم واللعنات عليه ، وكل منهم كان على حق ، بل تعدى كثيرون منهم بالضرب عليه . وبعد ان غادروا المكان ، وحطموا المرايا أثناء رحيلهم ، وانتزعوا معهم كثيرا من الأشياء الثمينة ، نهض « أغسطس » بعد أن كان مطروحا على الأرض ، مضروبا مهانا . وعندما دخل حجرة نومه ونظر إلى المرآة أثناء اغتساله ، حملق فيه وجهه ، قبيحا ، مليئا بالغضون ، والعينان حمروان ، مبللتان ، والدم يقطر من جبينه .

حدث نفسه قائلا : « هذا جزائى » ، وجعل يمسح الدم عن وجهه ، وما كاد يجد قليلا من الوقت للتفكير ، حتى اقتحمت الضجة المنزل مرة أخرى ، وأقبل جمع غفير يتدافع على السلم : المرابون الذين رهن عندهم المنزل ، زوج كان قد أغوى زوجته ، آباء أغرى أبناءهم بالرذيلة والفساد ، خدم وخادمات كان قد فصلهم ، رجال الشرطة ومحامون ، ولم تنقض ساعة، حتى كان جالسا فى إحدى عربات الشرطة مقيد اليدين فى طريقه

إلى السجن . وتصايح الجمهور وراءه مشيعا له بالأغانى الساخرة المستهزئة ، وألقى عليه قاطع طريق من إحدى النوافذ حفنة من القاذورات أصابت وجهه .

وأخذت جنبات المدينة تتردد بأصداء الأفعال المخزية التى اقترفها هذا الرجل الذى عرفه الكثيرون وأحبوه . لم تكن هناك خطيئة لم يتهم بها ، أو يستطيع أنكارها . ووقف أمام القاضى أناس كان قد نسيهم منذ وقت بعيد، واتهموه بأشياء ارتكبها منذ أعوام . والخدم الذين كافأهم ولم يتورعوا عن سرقته أفشوا رذائله الخفية ، وكانت الوجوه جميعا مشحونة بالبغضاء والحقد ، ولم يكن ثمة أحد يتكلم مدافعا عنه ، أو مثنيًا عليه ، أو شافعا له، أو ذاكرا أى شىء حسن عنه .

ولم يحتج على شىء من هذا كله ، بل استسلم لحراسه الذين اقتادوه إلى زنزانة وأخرجوه منها ليمثل أمام القضاة والشهود . وكان ينظر فى دهشة وأسى من عينين عليلتين إلى كثير من الوجوه الممتلئة بالشر والغضب والكراهية ، وفى كل منها كان يرى وراء البغض والتشوه سحرا مخفيا ، ويحس بوميض من التعاطف . فهؤلاء الناس جميعا أحبوه ذات يوم ، ولكنه لم يضمر الحب لأحد منهم ، واليوم يتوسل إلى صفحهم ، ويرجو أن يتذكر شيئا طيبا عن كل واحد منهم .

وفى نهاية الأمر ، أرسل الى السجن . ولم يخطر لأحد أن يزوره هناك . فكان فى أحلامه المحمومة يتحدث إلى أمه ، إلى أول من أحبها ، وإلى أبيه الروحى « بنسفاجنر » ، وإلى السيدة الشمالية التى التقى بها على السفينة . فإذا استيقظ وجلس وحيدا مهجورا خلال تلك الأيام المخيفة ، كابد كل

آلام الحنين والعزلة ، واشتاق إلى رؤية الناس كما لم يشتق إلى أية متعة أو امتلاك .

وعندما أطلق سراحه ، كان شيخا عليلا ، لم يعد أحد يتعرف عليه . وكان العالم يسير فى طريقه كما سار دائما : الناس يركبون العربات ، ويمتطون الجياد ، ويتنزهون فى الطرقات ، والباعة يعرضون الفاكهة والأزهار، واللعب والصحف ، وما من أحد يلتفت للحديث إلى «أغسطس» . والنساء الجميلات اللواتى احتضنهن بين ذراعيه فيما مضى فى جو الموسيقا والشمبانيا يَمْرُرْنَ عليه فى مواكبهن ، فيستقر الغبار الذى تثيره مركباتهن على ثيابه .

إلا أن ذلك الخواء المخيف والوحدة التى خنقته وسط الترف الذى كان يعيش فيه ، تلاشيا الآن تماما ، وحينما يتوقف عند ظل بوابة ليحتمى لحظة من قيظ الشمس أو عندما يطلب جرعة ماء من فناء مبنى متواضع ، كان يتعجب من الفظاظة والغلظة اللتين يعامله بهما الناس ، أولئك الناس أنفسهم الذين كانوا يستجيبون من قبل لكلماته المتعجرفة اللامبالية فى عرفان بالجميل وبعيون متألقة . ومع هذا كله كان مسرورا متأثرا مبتهجا بمرأى كل إنسان ، وكان يحب الأطفال الذين يشاهدهم وهم يلعبون أو يذهبون إلى المدرسة ، كما كان يحب العجائز من الرجال والنساء جالسين على الأرائك أمام منازلهم الصغيرة ، يدفئون أيديهم المتغضنة فى الشمس . فإذا أبصر شابا يتابع فتاة بنظرات مشتاقة ، أو عاملا يعود فى الليلة التى تسبق عطلته ، ويحتضن أطفاله بين ذراعيه ، أو طبيبا بارعا أنيقا يستقل مركبته فى هدوء واستعجال ، حريصا على مرضاه أو حتى حين يرى بغيا تنتظر إلى جانب أحد أعمدة النور ، متأهبة لأن تهب الحب ، حتى وإن كان له ، وهو المنبوذ

من المجامع . . . هؤلاء جميعا كانوا إخوانه وأخواته ، وكل منهم يطوى صدره على ذكرى أم محبوبة ، أو على خلفية أفضل مما هو فيه ، أو على علامة مستترة على مصير أرفع وأنبل ، وكان كل منهم عزيزا مرموقا فى عينيه، يمنحه غذاء للفكر ، ولايرى فيهم أحدا أسوأ منه حالا .

واعتزم « أغسطس » أن يجوب خلال العالم ، وأن يبحث عن مكان يستطيع أن يكون فيه خادما للناس ، وبهذا يظهر مايكنه لهم من حب . وكان عليه أن يتعود على هذه الحقيقة ، وهى أن مظهره لم يعد مما يسعد أحدا؛ إذ تهدلت وجنتاه ، وكانت ثيابه وحذاؤه لا يليقان إلا بمتسول . . . بل إن صوته ومشيته فقدا جاذبيتهما التى كانت تبهج الناس وتسعدهم فى يوم من الأيام . كان الأطفال يخافون منه بسبب لحيته الكثة الطويلة التى وخطها الشيب ، وأصحاب الملابس الأنيقة يتحاشونه أن يلوث ثيابهم ، أما الفقراء فكانوا يرتابون فيه بوصفه غريبًا يمكن أن ينتزع منهم اللقيمات التى تقيم أودهم . وعلى هذا ، كان من العسير عليه أن يسدى خدمة لأحد . إلا أنه كان يتعلم ، ولايسمح لشىء أن يصيبه بالقنوط . فكان يساعد طفلا صغيرا على أن يمد يده لتبلغ مزلاج باب لايستطيع أن يصل إليه ، وأحيانا أخرى كان يجد انسانا فى حالة أسوأ من حالته ، كأن يكون كسيحا أو ضريرا يستطيع أن يساعده ، وأن يرفع من روحه المعنوية قليلا أثناء الطريق ، فإذا لم يستطع أن يفعل ذلك أعطى القليل الذى يملكه مبتهجا ، ربما كانت نظرة مشرقة مشجعة ، أو تحية أخوية ، أو لمحه تدل على الفهم والتعاطف . وتعلم من تجولاته أن يستشف من ملامح الناس مايتوقعونه منه ، ومايمكن أن يسرهم : فقد يحيى أحدهم تحية عالية مرحة ، وقد يمنح الآخر نظرة هادئة ، أو إذا رأى أن شخصا يريد أن يخلو إلى نفسه ، تركه منفردا دون

إزعاج ، وازدادت دهشته يوما بعد يوم من مقدار الشقاء الموجود فى العالم ، ومع ذلك يبدو الرضا على الناس ، وكان من دواعى سروره وغبطته أن يرى دائما أن كل مصيبة يعقبها الضحك ، وعقب كل موت تتعالى أغنية لطفل ، وإثر كل جشع ووضاعة فعلة من أفعال المجاملة ، أو دعابة ، أو كلمة غراء، أو ابتسامة .

كانت الحياة الإنسانية رائعة فى ترتيبها الحسن . فإذا انعطف عند ركن من أركان شارع وشاهد طائفة من التلاميذ يتواثبون صوبه ، رأى كيف تتألق الشجاعة والفرح الحى ونضارة الشباب فى عيونهم جميعا . ولو أنهم ضايقوه وعذبوه قليلا ، لم يكن ذلك سيئًا كل السوء ، بل كان يلتمس لهم الأعذار . وإذا لمح صورته فى نافذة حانوت أو فى مياه نافورة للشرب ، رأى أنه قد أصبح شيخا امتلأ وجهه بالتجاعيد ، رث الثياب ، أشعث الهيئة . كلا . . لم تعد المسألة أن يسر الناس بمرآه ، أو أن يكون له سلطان عليهم ، حسبه ماكان له . وما أشد اعتباره حين يرى الآخرين يناضلون عبر السبل التى سلكها من قبل ، ويعتقدون أنهم يحرزون تقدما ، وحين يشاهد كيف يسعى كل إنسان إلى هدفه متلهفا ، وفى كثير من القوة والفخر والفرح كان هذا كله يبدو لعينيه دراما مدهشة .

وها هو ذا الشتاء يقبل ، يعقبه الصيف مرة أخرى ، ويرقد « أغسطس » مريضا فترة طويلة فى مصحة خيرية ، وهنا استمتع صامتا شاكرا . . بمرأى التعساء من الناس يتشبثون فى إصرار بالحياة ، وينتصرون على الموت . وكان من أروع الأشياء أن يرى الصبر مرتسمًا على وجوه المرضى المصابين بعلل خطيرة ، وتزايد الفرح المشرق بالحياة فى عيون الناقهين . كما كان جميلا أيضا ذلك الهدوء والوقار المرتسمان على وجوه الموتى . . وأجمل من هذا كله كان

الحب والصبر اللذان تبديهما الممرضات الجميلات الرحيمات ، إلا أن هذه الفترة انتهت أيضا ، وهبت رياح الخريف . وواصل « أغسطس » تجواله فى وجه الشتاء ، واستولى عليه نوع غريب من نفاد الصبر ، حين رأى أن تقدمه يسير فى بطء لامتناه ؛ ذلك أنه كان يريد أن يطوف بكل أنواع الأماكن ، وأن ينظر فى عيون كثير من الناس . وكان رأسه قد اشتعل شيبا ، وعيناه تبتسمان واهنتين وراء جفون حمراء ملتهبة ، كما أخذت ذاكرته تضعف شيئا فشيئا ، بحيث بدا له أنه لم يشاهد العالم أبدا مختلفا عما كان عليه فى يومه ، ولكنه كان راضيا به ، ويعتقد أنه عالم رائع جدير بالحب .

وفى مستهل الشتاء ، وصل إلى المدينة . كان الجليد ينهمر على الشوارع المعتمة ، وكان بعض الصبيان الأشرار يقذفون العابر بكرات الثلج ، أما فيما عدا ذلك ، فقد كان سكون المساء مخيما على كل شىء . وشعر « أغسطس » بنصب شديد عندما بلغ شارعا ضيقا بدا مألوفا له ، وكذلك رأى شارعا آخر . وهناك وجد نفسه واقفا أمام بيت أمه ، وبيت أبيه الروحى «بنسفاجنر » ، وكان البيتان ضئيلين عتيقين تحت ذلك السيل المنهمر من الجليد . غير أن نافذة أبيه الروحى الوحيدة كانت تسطع بنور أحمر يومض مرحبا فى ليل الشتاء .

ودخل « أغسطس » ، وطرق باب حجرة المعيشة ، فأقبل الرجل العجوز الضئيل لمقابلته ، وقاده صامتا إلى داخل الحجرة ، وكانت دافئة هادئة ، وفى المدفأة كان يشتعل قبس من نار متوهجة .

سأله أبوه الروحي : « أأنت جائع ؟ »

غير أن « أغسطس » لم يكن جائعا ، فاكتفى بالابتسام وهز رأسه .

قال أبوه الروحى : « ولكن ، لابد أنك متعب » وبسط سجادته الفراء العتيقة على الأرض ، وهنالك تلاصق شخصان عجوزان ، جعلا ينظران إلى النيران .

قال أبوه الروحى : « لقد قطعت طريقا طويلا » .

« آه ! كان ذلك رائعا ، ولم أشعر بالتعب إلا الآن فحسب . هل أستطيع النوم هنا ؟ وسأرحل غدا »

- « طبعا . . بكل تأكيد . ولكن ، ألا تريد أن تشاهد الملائكة يرقصون مرة أخرى ؟ »

- « الملائكة ؟ بلى ، هذا شىء أحبه حبا جما ، لو عدت طفلا مرة أخرى» .

فواصل أبوه الروحى حديثه قائلا : « لم ير أحدنا الآخر منذ وقت بعيد ! لقد أصبحت وسيما ، وتألقت عيناك بالعطف والعذوبة كما كانت تماما فى ذلك الزمن القديم عندما كانت أمك لاتزال حية . وإنه لظرف منك أن تزورنى » .

وجلس المتجول بأسماله البالية هادئا إلى جانب صديقه . لم يشعر من قبل بمثل هذا الإرهاق الذى يشعر به الآن ، ودارت رأسه من وهج النار والدفء اللذيذ الذى يشمل المكان ، فلم يعد يستطيع التمييز بوضوح بين اليوم وبين الماضى . فقال :

« أبى الروحى بنسفاجنر ، لقد عدت شقيا مرة أخرى ، وهاهى ذى أمى تصيح فى المنزل . ينبغى أن تتحدث إليها وأن تخبرها بأننى سأكون ولدا طيبا من الآن فصاعدا ، أتراك ستفعل ذلك ؟ »

قال أبوه الروحى : « سأفعل ، ولكن لاتزعج نفسك ؛ فإنها تحبك . » وهنا خمدت النار ، وأخذ « أغسطس » يتفرس فى الحمرة المعتمة بعينين واسعتين يغشاهما النعاس كما كان يفعل أثناء طفولته . ووضع أبوه الروحى رأسه فى حجره ، وانبعثت موسيقا رقيقة أثيرية ، وانسابت فى نعومة وسحر خلال الحجرة التى يشملها الظلام ، وحلقت آلاف الأرواح الدقيقة المتألقة أزواجا أزواجا ، وأخذ يدور بعضها حول البعض الآخر فى تشكيلات منتظمة ، تغمرها السعادة . وجعل أغسطس يراقبها وينصت إلى تلك الموسيقا الساحرة ، وقد فتح إحساسه الطفولى المتلقى على مصراعيه عائدا إلى فردوسه المفقودَ .

وخيل إليه ذات مرة أن أمه تناديه ، ولكنه كان فى حالة من الإرهاق الشديد ، كما أن أباه الروحى وعد بالتحدث إليها ، فعندما غلبه النعاس، طوى أبوه الروحى راحتيه ، وجلس مصغيا إلى جانب القلب الذى سكنت دقاته ، حتى شمل الحجرة ظلام تام !

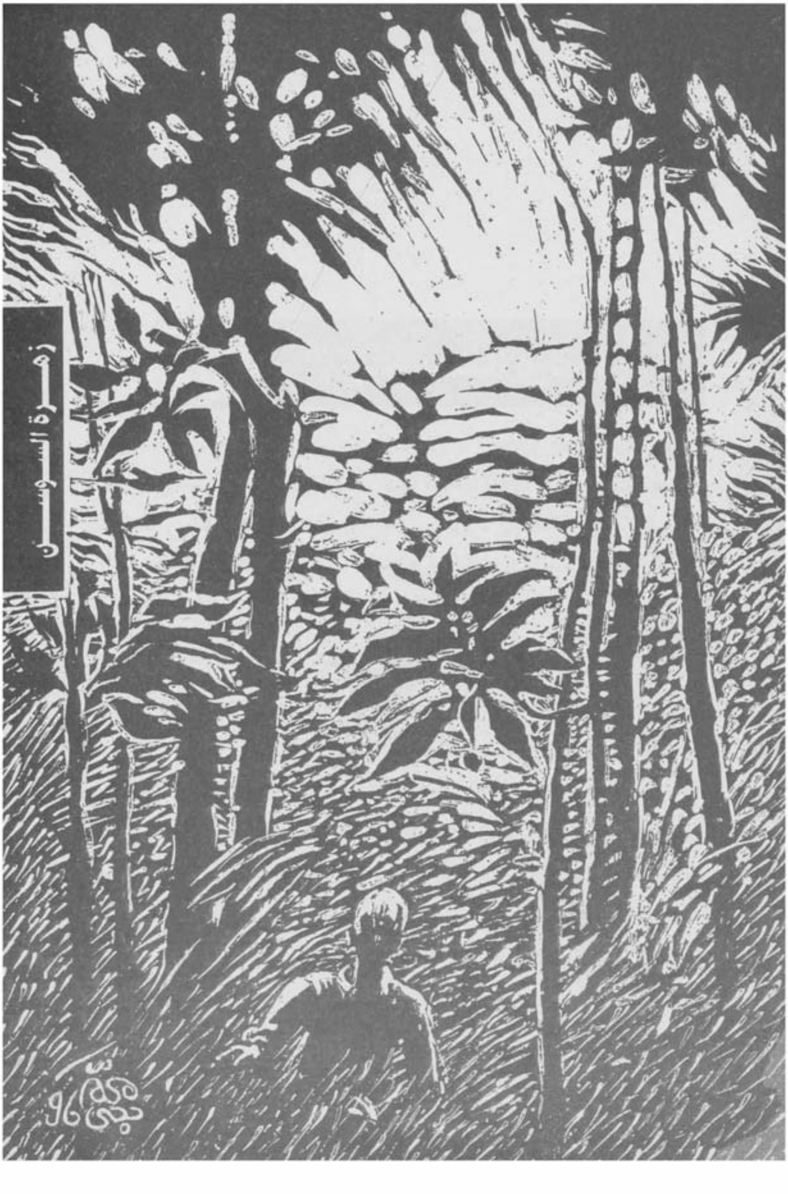
زهرة السوسن

زهـــرة الســـوســـن

اعتاد « آنسلم » وهـــو فى ريعـــان طفولته أن يمرح ويلعب فى الحديقة الخضراء ، وكانت إحدى زهور أمه وتدعى « السوسنة حاملة السيف » هى الزهرة المحببة لديه ، فكان يضغط بوجنته على أوراقها الطويلة الزاهية الاخضرار ، ويلمس أطرافها الحادة بأنامل تلتمس الكشف وينشق بعمق أريج أكمامها الرائعة الكبيرة ، ويطيل إليها التأمل لحظات إثر أخرى .

وفى الداخل ، كانت ترتفع من قاع الزهرة الأزرق الشاحب صفوف طويلة من الأصابع الصفراء ، وبين هذه الصفوف يمتد معبر لامع يتوغل فى الأعماق ويصل إلى الكم وإلى السر الأزرق العميق الذى تضمره الزهرة . كان يحب هذه الزهرة حبا جما ، وكان الكشف عن خباياها لعبته المفضلة ، وفى بعض الأحيان ، كانت أعضاؤها الرقيقة المستقيمة الصفراء تتراءى له وكأنها سياج ذهبى فى حديقة ملك ، ويراها تارة أخرى صفا مزدوجا من أشجار الأحلام الفاتنة التى لم تمسها الأقسام ، وبينها يمتد ذلك المعبر المستسر بعروقه الحية البراقة المتشابكة ، الرقيقة كخيوط من زجاج ، وهناك فى الخلف يفغر الكهف فماً واسعا ، والسحر الممتد بين الأشجار الذهبية

يضيع فى العمق اللامتناهى لهوات لايدركها الخيال ، وثمت قبة بنفسجية تنحنى من جلال ملكى فوقها ، وتلقى ظلالا نحيلة سحرية على تلك الأعجوبة الصامتة المرتقبة . كان آنسلم يعلم أن هذا هو ثغر الزهرة ، وأن وراء هذا البهاء الأصفر المترف الذى تتحلى به الهوة الزرقاء ، هنالك يحيا قلبها وأفكارها ، وعبر ذلك الممر اللامع الجميل بعروقه الزجاجية تجرى أنفاسها وأحلامها غُدُوًّا ورواحا .

وإلى جانب الزهرة الطويلة كانت تنبثق براعم أصغر لم تتفتح أكمامها بعد، وهى تستوى على سوق متينة مكتنزة العصارة فى كئوس صغيرة ذات بشرة بنية ضاربة إلى الاصفرار ، ومنها تشق النوارات الجديدة طريقها صاعدة فى صمت وعنفوان ، ملفوفة بإحكام فى أوراق خضراء وبنفسجية فاتحة ، إلا أن البنفسج الداكن الجديد ، منتصبا ملفوفا بعناية ، يطل من نقاط رقيقة ، بل إن هذه البتلات الصغيرة الملفوفة بإحكام تكشف عن شبكة من العروق ومن مئات العلامات الخفية .

وفى الصباح ، عندما يغادر المنزل نشطا بعد أن أخذ قسطه الوافر من النوم والأحلام والعوالم الغريبة . هنالك تقف الحديقة فى انتظاره ، دائمة التجدد والتغير ، فحيث كانت هناك بالأمس نوارة زرقاء متماسكة ملفوفة بإحكام تطل من غمدها الأخضر ، تتدلى الآن نحيلة زرقاء كالهواء بتلة صغيرة ذات لسان وشفة ، تبحث جاهدة عن الشكل المنحنى الذى طالما حلمت به . وفى آخر القاع حيث كانت مشتبكة فى صراع صامت مع غمدها ، كان نماؤها الأصغر الرقيق فى مرحلة الإعداد ، ذلك المعبر اللامع المعروق ، وتلك الهاوية العطرة القصية فى أغوار الروح . وربما تفتحت فى أوائل الظهيرة ، أو لعلها تفتح فى المساء تلك الخيمة الحريرية الزرقاء القائمة

فوق الغابة الذهبية ، ومن الهاوية السحرية تتردد فى أنفاسها الصامتة أحلامها الأولى ، وأفكارها وأغانيها .

وجاء يوم امتلأت فيه الحشائش بالزهور الزرقاء الشبيهة بالأجراس . جاء يوم انبعثت فيه فجأة أصوات جديدة ، وأريج جديد ، وفوق الأوراق التى أضفت عليها الشمس حمرة داكنة ، تدلت وردة الشاى الأولى ، ناعمة ذهبية الاحمرار . وجاء يوم اختفت فيه أزهار السوسن حاملة السيوف . . ذهبت جميعا فلم يعد لها أثر ، ولم تعد هناك مسالك ذات أسيجة ذهبية تفضى فى رقة إلى أسرار الأعماق العاطرة ، وإنما انتصبت الأوراق الحادة الباردة متصلبة معادية ، إلا أن ثمار التوت الحمراء كانت تنضج فى الآجام . وفوق أزهار النجيبات أخذت تطوف فى مرح وانطلاق فراشات جديدة لم يسمع أحد عنها من قبل .

وتحدث آنسلم إلى الفراشات وإلى الحصى ، وعقد صداقات مع الخنافس والسحالى ، وكانت الطيور تروى له حكايات عن الطيور ، وكانت نباتات السرخس تكشف له عن مخازنها من البذور البنية المختبئة تحت سقف مخزنها العملاق ، وأما شظايا الزجاج الأخضر والبللورى التى تلتقط أشعة الشمس ، فكانت تتحول بالنسبة إليه إلى قصور وجنات ، وحجرات تحتوى على كنوز متلألئة . وعندما تختفى الزنابق تزدهر أزهار « أبو خنجر» ، وعندما تصوح زهور الشاى تتحول أزهار العليق إلى اللون البنى . الأشياء جميعا تتبادل الأماكن ، وهناك دائما مايذهب ، ودائما مايجىء ، تختفى لتأتى مرة أخرى فى موسمها ، وحتى فى تلك الأيام الرائعة المخيفة ، حين تصفو الريح الباردة خلال غابة الصنوبر ، يكون حفيف الأوراق المتساقطة متهالكا فى الحديقة كلها ، حينذاك تأتى أغنية أخرى ، تجربة جديدة ، حكاية . . .

حتى يهدأ كل شىء مرة أخرى ، فيسقط الجليد خارج النوافذ ، وتنمو غابات النخيل على الأحواض ، ويحلق ملائكة يحملون أجراسا فضية عندما يأتى المساء ، ويفوح من القاعة أريج الفاكهة المجففة . إن الصداقة والثقة لايخونان أبدا فى هذا العالم الطيب ، وعندما تتألق أزهار العشب على غير توقع بجانب أوراق اللبلاب السوداء ، تبدو وكأنها كانت هناك طوال الوقت، حتى يحدث ذات يوم ، لم يتوقعه أحد على الإطلاق ، ومع ذلك يحدث دائما على النحو الذى ينبغى له أن يحدث به ، ويلقى دائما الترحيب نفسه ، يحدث ذات يوم أن يطل أول برعم مدبب مائل إلى الزرقة من ساق «السوسنة حاملة السيف» مرة أخرى .

كان كل شىء جميلا فى عينى «آنسلم» كان كل شىء بديعا ، ودودا ، مألوفا ، إلا أن أوج لحظات السحر والنعمة يأتى كل عام لحظة ظهور أول «سوسنة حاملة السيف» . ففى لحظة من لحظات طفولته المبكرة ، قرأ فى كأسها كتاب العجائب لأول مرة ، ومن شذاها وزرقتها المتحولة المتبدلة صدرت إليه نداءات تدعوه إلى العالم الرحيب ، وفيها وجد مفتاحه . وهكذا رافقته «السوسنة حاملة السيف» خلال أعوام البراءة كلها . وكانت تبدو له جديدة مع كل صيف جديد ، فتزداد ثراء بما تنطوى عليه من سر وتأثير ، هناك أزهار أخرى لها ثغور ، وبعضها ينشر الأريج والأفكار ، وبعضها الآخر يغرى النحل والخنافس بالدخول إلى حجراتها الصغيرة الحلوة، غير أن السوسنة الزرقاء كانت بالنسبة للصبى أعز وأهم من أية زهرة أخرى ؛ فقد كانت له رمزًا ومثلا على كل شىء يستحق التأمل والإعجاب. وعندما كان يحدق فى قدحها ، وعندما يدع أفكاره فى هذا الاستغراق تتابع ذلك المعبر الحالم المتألق الممتد من المكان المعشوشب الأصفر العجيب متجها

صوب الشفق الباطنى للزهرة ، كانت روحه تنفذ عبر البوابة التى يتحول عندها الظاهر إلى مغارقة ، والرؤية إلى وهم . وفى الليل أيضا كان يحلم بهذا القدح المزهر ، فكان يراه ينفتح أمامه على نحو سحرى ، كما تتفتح بوابة قصر فى الجنة ، فيجتازها ممتطيا صهوة جواد ، أو طائرا على أجنحة البجع ، ويطير معه العالم كله ويركب وينزلق فى لطف مشدودا بالسحر صوب الهاوية الفاتنة ، حيث تجد كل أمنية تحققها ، وحيث يصدق كل تلميح .

كل ظاهرة على الأرض ليست سوى استعارة ، وكل استعارة عبارة عن بوابة مفتوحة يمكن أن تجتازها الروح - إن كانت على استعداد - إلى باطن العالم ، حيث أكون أنا وأنت ، والليل والنهار ، شيئا واحدا . وإلى هذه البوابة المفتوحة ، يأتى الإنسان أثناء حياته ، ويصادفها هنا أو هناك فى طريقه ، وما من انسان إلاوقد خطر له ذات مرة أن كل ماهو مرئى لا يعدو أن يكون استعارة ، ووراء هذه الاستعارة تحيا الروح ، والحياة الأبدية .

ومن المؤكد أن قلة من الناس هم الذين يجتازون هذه البوابة ، وينصرفون عن وهمهم الجميل لقاء الواقع الذى يتصورونه كامنا فى الداخل .

وهكذا كان كأس السوسنة بالنسبة لآنسلم هو ذلك السؤال المفتوح غير المنطوق الذى تسعى إليه روحه جاهدة فى توقع متزايد بحثا عن إجابة شافية ، إلا أن تعدد الأشياء الفاتن كان يصرفه عن هذا مرة بعد أخرى ، فى حديثه وألعابه مع الزجاج والحجارة ، ومع الجذور ، والآجام ، والحيوانات ، ومع كل مايحتويه عالمه من ألوان الحضور الودود . وطالما استغرقه التأمل العميق لنفسه ، فكان يجلس مغمض العينين غارقا فى أعاجيب جسده ، شاعرا حين يبتلع أو يغنى أو يتنفس - بأحاسيس غريبة ، ودوافع وإيحاءات

فى فمه وحلقه ، متحسسا هنا أيضا السبيل والبوابة حيث يمكن أن تذهب روح إلى روح . ولاحظ فى اندهاش الأشكال الملونة الحافلة بالمعانى والتى تتبدى له خارجه من تلك الظلمة القرمزية عندما يغمض عينيه نُقَطًا ، وأنصاف دوائر زرقاء أو حمراء قائمة تتخللها خطوط زجاجية فاتحة .

وفى بعض الأحيان كان يدرك فى وثبة مباغته سعيدة مئات الصلات الدقيقة بين العين والأذن ، بين الشم والذوق ، وكان يشعر خلال لحظات عابرة جميلة أن النغمات والأصوات وحروف الأبجدية ترتبط وتتشابه مع الأحمر والأزرق ، ومع الجان واللين ، أوقد يتعجب حين يشم نباتا معينا ، أو ألواح اللحاء الأخضر ، كيف يرتبط الشم بالذوق ارتباطا وثيقا ، وكيف يتداخل أحدهما فى الآخر ليصبحا شيئا واحدا .

الأطفال جميعا بهذا ، وإن لم يكن ذلك بنفس هذه الشدة والرهافة ، وكثير منهم يفارقهم هذا الشعور وكأنه لم يوجد أبدا ، حتى قبل أن يتعلموا حروفهم الأولى . وبعضهم يحتفظ بسر الطفولة زمنا طويلا ، وتبقى معهم أثارة منها وصدى لها حتى تشيب رءوسهم وينال النصب منهم كل منال .

والأطفال جميعا ، طالما ظلوا داخل هذا السر يشغل أرواحهم هذا الشىء الهام الفريد بلا انقطاع ، أعنى انشغالهم بأنفسهم وصلتهم بالعالم الخارجى التى تتسم بالمفارقة . والباحثون والحكماء يعودون إلى هذا الشاغل فى أعوام نضجهم ، إلا أن معظم الناس ينسون إلى الأبد ويهجرون فى وقت مبكر هذا العالم الباطنى وأهميته الحقة، وتراهم يتخبطون طيلة حياتهم فى متاهة الشهوات والهموم والأهداف المتعددة الألوان ، وهى شهوات وهموم وأهداف لامكان لأى منها فى أعمق أعماق وجودهم الباطنى ، ولا يؤدى أى منها مرة

أخرى إلى ذلك الوجود الباطنى ، أو يعود بهم إلى الوطن .

وفى خلال طفولة آنسلم ، كانت شهور الصيف والخريف تأتى وتذهب فى هدوء زهور السندروب ، والنباتات المتسلقة ، والبنفسج والزنابق والسوسن والورود تزهر ثم تذبل ، جميلة يانعة كعهدها دائما وأبدا . وكان يعيش معها ، والزهر والطير ، والشجر والغدير ينصتون إليه ، وقد حمل حروفه المكتوبة الأولى ، وهموم صداقته الأولى إلى الحديقة ، إلى أمه وإلى الأحجار المتعددة الألوان التى تحيط بالأحواض .

وأتى ربيع ، لم يكن يشبه فى شىء فصول الربيع السابقة ، وعاد الشحرور إلى الغناء ، ولكن لم يكن هذا هو غناؤه القديم ، وأزهرت السوسنة الزرقاء ، فلم تنطلق منها أية أحلام أو حكايات خرافية ، منها أو من الممر المسور بالذهب فى كأسها . وكانت ثمار الفراولة المختبئة تضحك بين الظلال الخضراء ، والفراشات تتعثر فى رشاقة فوق الزهور ، غير أن شيئا لم يكن كما كان من قبل دائما . لقد أصبحت للصبى اهتمامات أخرى ، وكان دائم الخلاف مع والدته ، ولم يكن يدرى هو نفسه سبب المتاعب ، أو لماذا يتألم على هذا النحو ، ولماذا يضيق دائما بشىء ما . كل ماراه هو أن العالم قد تغير ، وأن صداقات الأزمنة السابقة قد ولت وتركته وحيدا .

وهكذا انقضى عام ، يتلوه عام آخر ، ولم يعد آنسلم طفلا . والأحجار الملونة التى تحيط بأحواض الزهور كانت تبعث السأم إلى نفسه ، والزهور نفسها أصبحت صامتة ، والخنافس احتفظ بها فى علبة ، مرشوقة بالدبابيس، لقد جفت الأفراح القديمة، وصوحت وانعطفت روحه فى الطريق الصعب الطويل .

وفى فورة شديدة شق الشاب طريقه فى الحياة التى خيل إليه أنها لم تبدأ إلا الآن ، أما عالم الاستعارة فقد خلعه من ذاكرته ، ونسيه تماما ، وهذه رغبات جديدة ومسالك جديدة تمد له حبال الإغراء . وظلت هالة الطفولة تحوم حوله ، بعنيبه الزرقاوين ، وشعره الناعم المسترسل ، ولكنه كان يثور إذا ذكر بها ، ولهذا قص شعره ، واصطنع هيئة يبدو فيها مقتحما خشنا على قدر الإمكان . وفى سنوات الدراسة الثانوية المزعجة شق طريقه كالعاصفة لايستطيع أحد أن يتنبأ بتصرفاته مقدما ، فأحيانا يكون الطالب المجد والصديق المخلص ، وأحيانا أخرى ينطوى على نفسه وحيدا منعزلا ، وهو يدفن نفسه فى الكتب حتى ساعة متأخرة من الليل تارة ، وهو وحشى المزاج وصاحب عربيد تارة أخرى ،وكان لابد أن يعيش فى المدرسة بعيدا عن المنزل، فكان لايراه إلا فى مناسبات قصيرة عندما يأتى لزيارة أمه . وكان قد طرأ عليه تغير كبير ، فطالت قامته ، وتأنق هندامه ، وكان يصحب معه الأصدقاء أو الكتب التى كانت تختلف فى كل مرة ، فإذا تمشى خلال الحديقة القديمة ، كانت تبدو لنظرته الحائرة ضئيلة صامتة . ولم يعد يقرأ حكايات فى عروق الأحجار والأوراق المتعددة الألوان ، كما لم يعد يرى الأبدية مستقرة فى مستودع السر الأزرق لزهرة السوسن .

التحق آنسلم بالمدرسة الثانوية ثم بالكلية ، وجاء إلى البيت بقلنسوة حمراء ، ثم تلتها واحدة صفراء ، وشعيرات خفاف فوق شفته العليا ، ثم بلحية صغيرة . وكان يحمل معه كتبا بلغات أجنبية . وذات مرة أحضر معه كلبا . وفى جيب سترته الداخلى كان يضع أحيانا قصائد سرية ، وأقوال الحكماء القدماء ، أو صورا لفتيات جميلات ، وخطابات منهن . وعاد مرات من رحلات إلى بلاد بعيدة ، ومن أسفار بحرية على سفن كبيرة ،

ورجع ثانية بعد أن أصبح مدرسا شابا يضع قبعة سوداء على رأسه ، ويرتدى قفازين داكنين ، وكان جيرانه القدماء يلمسون أطراف قبعاتهم تحية له ، ويدعونه بالأستاذ وإن لم يبلغ بعد هذه المرتبة . وجاء مرة أخرى يرتدى ثيابا سوداء ويسير نحيلا حزينا وراء العربة البطيئة التى ترقد فيها أمه فى كفن مغطى بالزهور . ولم يعد بعد ذلك إلا نادرا .

وفى العاصمة حيث أصبح « آنسلم » مدرسا ذا سمعة أكاديمية رفيعة ، كان سلوكه لايخالف سلوك أهل الدنيا فى شىء ، فكان يرتدى قبعة أنيقة ، وسترة ، وكان جادا أو مرنا حسب ماتقتضى الظروف ، ويراقب العالم بعينين يقظتين ، يشوبهما شىء من التعب ، كان سيدا مهذبا وضليعا فى تخصصه كما أراد أن يكون ، إلا أن الأمور تحولت بالنسبة إليه تحولا جديدا ، كما حدث له فى نهاية طفولته . فقد أحس فجأة أن أعواما طويلة قد انقضت وتركته قائما فى وحدة عجيبة ، لا ترضيه طريقة فى الحياة اشتاق إليها دائما . لم يشعر بالسعادة الحقة من كونه أستاذا ، ولم يكن مما يشبع نفسه أن يحييه المواطنون والطلبة باحترام . كان هذا كله شيئا مبتذلا باليا . وأصبحت السعادة مرة أخرى شيئا بعيدا فى المستقبل ، والطريق يبدو له الآن حارا مغبرا محفوفا بالمخاطر .

وفى ذلك الحين ، كان آنسلم يتردد كثيرا على بيت صديق له أخت يراها «آنسلم » على شىء من الجاذبية ، وكان قد كف عن الجرى وراء الوجوه الجميلة ، ومن هذه الناحية أيضا كان قد تغير ، فهو يشعر أن سعادته ينبغى أن تكون على نحو خاص ، ولاينبغى أن يتوقعها وراء كل نافذة ، وكانت أخت صديقه قد وقعت من نفسه موقعا حسنا ، وكثيرا ماخطر له أنه يحبها حبا صادقا ، ولكنها كانت فتاة غريبة الأطوار ، فكل حركة تأتى بها ، وكل

كلمة تبدو منها كانت تحمل طابعها الخاص وشخصيتها المميزة ، ولم يكن من السهل دائما أن يتناغم المرء إيقاع تصرفاتها ، وفى الأمسيات ، عندما كان آنسلم يذرع بيته الموحش جيئة وذهابا ، منصتا فى تأمل إلى وقع خطواته التى يتردد صداها فى الحجرات الخاوية ، كان يناضل فى نفسه نضالا شديدا من أجل هذه المرأة ؛ فقد كانت أكبر سنا من المرأة التى يود أن تكون زوجا له . وكانت متقلبة المزاج بحيث يصعب عليه أن يعيش معها وأن يواصل طموحاته الأكاديمية التى لم تكن تتعاطف معها على الإطلاق ، كما أنها لم تكن قوية البنيان أو موفورة الصحة ، ولا تستطيع على الأخص أن تتحمل الحفلات والصحبة فى يسر، وقد فضلت أن تعيش حياة هادئة وحيدة بين الزهور والموسيقا والكتب ، وتركت العالم يسير على هواه ، أو يأتى إليها إذا لم يجد عن ذلك بدا . وأحيانا كانت حساسيتها من الرهافة بحيث إذا جرح مشاعرها شىء غريب ، انفجرت باكية بدموع غزيرة ، ثم لا تلبث أن تتوهج بعد ذلك بسعادة صامتة خفية ، فكان من يراها فى هذه الأحوال المتقلبة ، يدرك مدى الصعوبة التى يجدها المرء إذا أراد أن يعطى شيئا لهذه المرأة الغريبة الفاتنة أو أن يعنى شيئا إليها . وكان آنسلم يعتقد أحيانا أنها تحبه ، ولكنها كانت تبدو أحيانا أخرى أنها لاتحب أحدا ، وإنما هى تعامل الجميع فى لطف ومودة ، وأنها لاتريد إلا أن يدعها الناس فى سلام . إلا أنه كان يطلب من الحياة شيئا مختلفا كل الاختلاف ، وإذا كان لابد له من أن يتزوج، فينبغى أن تشيع الحياة والإثارة والحفاوة فى بيته .

قال لها : « آيريس العزيزة ، لو أن الحياة كانت مختلفة فى ترتيبها ! ولو لم يوجد شىء إلا عالمك البديع اللطيف من الزهور والأفكار والموسيقا ، إذن لما تمنيت أنا أيضا سوى أن أقضى حياتى كلها معك ، وأن أستمع إلى

قصصك ، وأقاسمك أفكارك . . إن اسمك نفسه يطربنى ، إن آيريس اسم رائع ، ولا أدرى بم يذكرنى » .

قالت : « ولكنك تعلم أن الزهور الزرقاء والصفراء حاملة السيف يطلق عليها هذا الاسم » .

أجاب فى شىء من عدم الارتياح : « أجل ، أنا أعلمه جيدا ، وهذا جميل فى حد ذاته . ولكن عندما أنطق اسمك يبدو لى دائما أنه يذكرنى بشىء سواه ، لاأدرى ماهو ، وكأنه يرتبط بذكريات بعيدة مهمة شديدة العمق ، ومع ذلك لا أدرى ماذا تكون ، ولاأستطيع الكشف عنها »

وابتسمت له آيريس وهى تراه واقفا فى حيرة يمسح جبينه بيده . وقالت له بصوتها الخفيف الذى يشبه صوت الطائر : « أنا أشعر دائما بهذا الشعور نفسه كلما تنشقت زهرة ، فقلبى يشعر وكأنما ترتبط بأريجها ذكرى شىء تام الجمال ونفيس ، شىء ظل فى داخلى زمنا طويلا ، ولكنى فقدته . وهذا هو الحال أيضا بالنسبة للموسيقا ، وأحيانا بالنسبة لقصائد الشعر - إذ يحدث فجأة أن تلوح ومضة لاتستمر سوى لحظة واحدة وكأننى شاهدت وطنا ضائعا يرقد أسفل الوادى ، ولكنه يختفى فى الحال وينسى . ياعزيزى آنسلم، أعتقد أننا على الأرض لهذا الغرض ، لهذا التأمل والبحث والإنصات لهذه الألحان الضائعة البعيدة . . . فوراءها يقوم وطننا الحقيقى .

قال فى إعجاب : « ماأجمل طريقتك فى التعبير عن هذا الشعور » وانتابه إحساس يكاد يؤلم صدره ، وكأنه يخفى بوصلة تشير فى إصرار صوب هدفه البعيد ، إلا أن هذا الهدف كان يختلف تمام الاختلاف عن الهدف الذى وضعه عن قصد وتدبير لحياته ، وهذا ماكان يزعجه ، إذ هل يجدر به أن يبدد حياته فى أحلام ليس لها مبرر سوى حكايات خرافية جميلة ؟ .

وذات يوم عاد السيد آنسلم من إحدى رحلاته الموحشة . فوجد حجرات الدراسة قاحلة ، باردة ضيقة بحيث اندفع مسرعا إلى بيت صديقه، وقد عقد عزمه على أن يخطب آيريس الجميلة .

قال لها : « آيريس ، أنا لا أريد أن أمضى فى الحياة على هذا النحو وقد كنت دائما صديقتى المخلصة ، وسأخبرك بكل شىء : أنا فى حاجة إلى زوجة ، وإلا فإن حياتى تبدو خاوية لامعنى لها . وهل يمكن أن تكون لى زوجة سواك يازهرتى الحبيبة ؟

فهل تقبلين ياآيريس ؟ سيكون لك ماتشائين من الأزهار ، وستكون لك أجمل حديقة . أأنت على استعداد للحياة معى ؟ »

ونظرت آيريس فى عينه هادئة متدبرة : لم تبتسم ، ولم تتضرج وجنتاها حياء ، بل أجابته بصوت حازم :

« آنسلم ، إن سؤالك لم يفاجئنى . أنت عزيز على ، وإن لم أفكر قط فى أن أكون زوجتك . ولكن انظر ياصديقى ، أنا أطلب الكثير من الرجل الذى أتزوجه . ومطالبى أكبر كثيرا من معظم النساء . أنت تعرض على زهورا ، وماتعنيه بذلك شىء حسن . ولكننى أستطيع أن أعيش بلا زهور ، وبلا موسيقا أيضا ، وأستطيع أن أستغنى عن أشياء كثيرة ، إذا اقتضى الأمر، غير أن هناك شيئا واحدا لا أستطيع الاستغناء عنه : لاأستطيع أن أعيش يوما واحدا لاتكون فيه الموسيقا التى تعزف فى قلبى هى السائدة . وإذا كان لابد لى من أن أعيش مع رجل ، فينبغى أن يكون رجلا تتناغم موسيقاه الداخلية مع موسيقاى فى جمال رقة ، وأن تكون رغبته الوحيدة هى أن تأتى موسيقاه الخاصة نقية صافية بحيث يمكن أن تمتزج بموسيقاى .

فهل تستطيع أن تفعل ذلك ياصديقى ؟ من المرجح أنك لن تكون أكثر شهرة على هذا النحو ، ولن تكتسب مزيدا من الأمجاد ، وسيكون بيتك هادئا ، والغضون التى رأيتها فوق جبينك منذ سنوات ، ينبغى أن تزول ، كلا ، يا آنسلم ، لن تسير الأمور على ما يرام ، إن تكوينك يدعوك دائمًا إلى إضافة غضون جديدة على جبينك ، وإلى أن تخلق باستمرار هموما جديدة ، أما ما أدركه وما أنا عليه ، فلا شك أنك تحبه وتجده شيئا ممتعا ، ولكنه بالنسبة إليك ـ كما هو بالنسبة لمعظم الناس ـ مجرد لعبة جميلة . استمع لى جيدا : إن كل مايبدو لك الآن لعبة هو الحياة بالنسبة إلىّ ، ولابد أن يكون لك أنت أيضا كذلك ، وكل ماتجاهد من أجله ، وتهتم به هو بالنسبة إلى لعبة ، وليس جديرًا فى نظرى بأن يحيا الإنسان من أجله ، وأنا لن أتغير يا آنسلم ؛ ذلك لأننى أعيش وفقا لقانونى الداخلى ، ولكن أتستطيع أنت تتغير ؟ ولابد من أن تتغير تماما إذا كنت سأصبح زوجتك » .

ولم يصدق آنسلم على الكلام ، وقد أخذ بقوة عزيمتها ، الذى اعتقد دائما أنها ضعيفة متقلبة ، وأخلد إلى الصمت ، ودون تفكير ، حطم زهرة كان قد التقطها من المنضدة بيد عصبية .

وعندما أخذت منه آيريس الزهرة فى لطف ، صدمته فعلتها هذه فى صميم قلبه كأنها رفض قاطع ، ولكنها ابتسمت له فجأة فى مرح وسمر ، وكأنها قد وجدت – على غير توقع – مخرجا من الظلمات .

قالت بصوت لطيف : « عندى فكرة » ، واحمرت وجنتاها أثناء الحديث، سوف تجدها غريبة ، وستبدو لك على أنها نزوة ، ولكنها ليست كذلك . هل يمكن أن تسمعها ؟ وستوافق على أنها ستحدد الأمر فيما يتعلق بنا ؟ » .

وحملق آنسلم فى آيريس دون أن يفهمها ، وقد تبدى القلق فى ملامحه الشاحبة ، إلا أن ابتسامتها أجبرته على الثقة فى أن يقول : « نعم » .

قالت آيريس وقد أصبحت جادة كل الجد مرة أخرى وفى الحال :

« سأعهد إليك بمهمة » .

فأجابها آنسلم : « افعلى . . فهذا من حقك » .

قالت : « هذه مسألة مهمة بالنسبة لى . . . وهى كلمتى الأخيرة ، فهل تقبلها كما تصدر مباشرة عن نفسى ولا تراوغ أو تساوم فيها حتى وإن لم تفهمها لأول وهلة ؟

فوعدها آنسلم . وهنا نهضت وقالت وهى تعطيه يدها : « قلت لى فى كثير من الأحيان : إنك فى كل مرة تنطق فيها اسمى تتذكر شيئا منسيا كان مهما ومقدسا فى نظرك ذات يوم . هذه علامة يا آنسلم ، وهى التى اجتذبتك إلىَّ طيلة تلك السنين ، وأنا أيضا أعتقد أنك فقدت ونسيت شيئا مهما ومقدسا فى روحك ، شيئا ينبغى أن يبعث من جديد قبل أن تعثر على السعادة ، وتبلغ ماقدر لك . وداعا ياآنسلم ! إننى أعطيك يدى وأناشدك : اذهب وتأكد من العثور فى ذاكرتك على مايذكرك به اسمى ، وفى اليوم الذى تعيد فيه اكتشاف ذلك الشىء سأذهب معك بوصفى زوجة لك حيثما تشاء ، ولن تكون لى رغبات سوى رغباتك .

وحاول « آنسلم » - وقد أصابه الارتباك والهلع - أن يقاطعها وأن يستبعد طلبه بوصفه نزوة ، إلا أن نظرة واحدة براقة ذكرته بالوعد الذى قطعه على نفسه ، فأخلد إلى الصمت ، وتناول يدها بعينين مطرقتين ، ورفعها إلى شفتيه ، وانصرف .

وفى مسيرة حياته ، أخذ على عاتقه مهامَّ كثيرة ، وأنجزها ، ولكن ، لم يكن فيها مثل تلك المهمة الغريبة الهامة ، الرهيبة فى الوقت نفسه . وقد اندفع محاولا التركيز عليها يوما إثر يوم ، حتى نال منه الإجهاد ، وكان يمر عليه دائما وقت يستبد به اليأس والغضب فيتخلى عن هذه المهمة كلها بوصفها فكرة أنثوية مجنونة ، فيرفضها رفضا قاطعا . إلا أنه كان يجد شيئا عميقا فى نفسه لايوافق عليه ، نوعا من الألم المستتر الخافت أشد الخفوت ، تحذيرًا ناعما لايكاد يتضح ، هذا الصوت الخافت الذى استقر فى قلبه ، كان يعلن أن « آيريس » على حق ، وكان يطلب نفس المطلب الذى طلبته .

ومهما يكن من أمر ، فقد كانت المهمة أصعب ماتكون على رجل العلم ؛ إذ كان من المفروض أن يتذكر شيئا منذ وقت طويل ، وكان عليه أن يهتدى مرة أخرى إلى خيط ذهبى فريد فى نسيج الأعوام الغرقة ، وأن يقبض بيديه ، وأن يقدم لمحبوبته شيئا لا يعدو أن يكون أغنية طائر تلاشت ، شعورا بالفرح أو الحزن عند سماع قطعة موسيقية ، شيئا أرهف وأسرع عبورا من فكرة لاجسد لها ، أو حلم لامادة فيه ، أو ضباب الصباح الذى لا شكل له .

وفى بعض الأحيان ، عندما كان ينصرف عن البحث ، ويستسلم لليأس ، كانت تمسه - على غير توقع - نسمة من حديقة بعيدة ، فكان يهمس لنفسه باسم « آيريس » عشر مرات أو يزيد ، بصوت ناعم خفيف كمن يختبر نغمة موسيقية على وتر مشدود . كان يهمس « آيريس .. آيريس » وفى شىء من الألم الخافت ، كان يتحرك شىء فى داخله كما ينفتح باب فى منزل مهجور دون سبب ، أو كما ينبعث صرير من دولاب . وكان يستعرض ذكرياته التى يعتقد أنها مخزونة فى ترتيب جيد ، وعندئذ يقع على

كشوف مدهشة مروعة . وكانت كنوز ذكرياته أقل كثيرا مما تصور ، فهناك أعوام مفقودة بأكملها ، فإذا حاول أن يعود إليها وجدها خاوية على عروشها كصفحات بيضاء . ووجد صعوبة كبيرة حين أراد استدعاء صورة واضحة لأمه . كما نسى تماما اسم فتاة كان يغازلها بحرارة فى شبابه مدة عام كامل ، وحدث أيضا أن تذكر كلبا كان قد اشتراه صدفة وظل محتفظا به زمنا طويلا ، وقد استغرق تذكره لاسم هذا الكلب يوما بأكمله .

وفى كثير من الألم وفى حزن وخوف متزايدين ، رأى الشاب المسكين مدى تفاهة الحياة التى امتدت وراءه وخواءَها ، تلك الحياة التى لم تعد تنتمى إليه، بل أصبحت غريبة عليه ولا تمت له بصلة ، وكأنها شىء حفظ ذات مرة عن ظهر قلب ولا يستطيع المرء الآن أن يستعيد إلا بصعوبة بضع فقرات لامعنى لها . وشرع فى الكتابة ، كان يريد بذلك أن يضع على الورق راجعا إلى الماضى عاما تلو عام - أهم تجاربه بحيث تبدو لذهنه واضحة مرة أخرى. ولكن ، ماذا كانت أهم تجاربه ؟ هل هى عندما عين أستاذا ؟ عندما تسلم شهادة الدكتوراه ؟ عندما كان طالبا جامعيا ، أم تلميذا بالمدرسة الثانوية ؟ أو عندما استمتع فى ماضيه المنسى بهذه الفتاة أو بتلك ؟ نظر إلى هذا كله مفزعا : أ كانت هذه هى الحياة ؟ أكان هذا هو كل شىء ؟ وضبط بيده على جبهته ، وأطلق ضحكة مريرة .

وفى هذه الأثناء ، كان الزمان يجرى ، بل يكاد يطير طيرانا غير معهود ، انقضى عام ، وبدا له أنه فى نفس الموقع بالضبط منذ أن ترك « آيريس » . ومع ذلك ، فقد طرأ تغير عظيم منذ ذلك الوقت ، تغير أدركه الناس جميعا إلا هو . فقد أصبح غريبا تقريبا بالنسبة لعارفيه الذين لاحظوا شروده ، وتبرمه ، وشذوذه ، واكتسب سمعة بأنه شخص غريب الأطوار لا سبيل إلى

التنبؤ بتصرفاته وكانت هذه سمعة سيئة بالنسبة إليه ، ولكنه كان أعزب منذ فترة طويلة ، وفى كثير من الأحيان ، كان ينسى واجباته الأكاديمية ، وكان طلابه ينتظرونه بلا جدوى ، فإذا استغرقه الفكر ، أخذ يتسكع أحيانا فى الشوارع ، ماسحا واجهات المنازل ، وغبار النوافذ بسترته الرثة أثناء عبوره . وظن كثير من الناس أنه شرع فى معاقرة الخمر . وفى أحيان أخرى كان يتوقف وسط محاضرة يلقيها فى قاعة الدرس محاولا أن يتذكر شيئا ما ، وعندئذ تظهر على وجهه فجأة ابتسامة جذابة طفولية على نحو جديد عليه تماما ، ثم يستأنف كلامه فى دفء من الشعور يؤثر على كثير من مستمعيه فى صميم قلوبهم .

وفى أثناء بحثه اليائس عن شيء من الاستمرارية وسط ماتركته الأعوام الماضية من آثار باهتة ، اكتسب ملكة جديدة لم يكن على وعى بها . إذ حدث المرة بعد المرة - وبصورة متزايدة - أن وجد خلف الذكريات التى يتذكرها ذكريات أخرى ، كجدار قديم نقشت عليه صور قديمة ، ولكن بصور أقدم منها خافية لايراها أحد . فكان يحاول أن يتذكر شيئا ، ربما كان اسم مدينة أمضى فيها عدة أيام فى بعض أسفاره ، أو يوم مولد صديق ، أو أى شيء آخر . وفى أثناء تنقيبه وبحثه خلال قطعة من الماضى وكأنه يفتش فى ركام من الحصى والأحجار ، هنالك يحدث له شيء مختلف كل الاختلاف . إذ تهب عليه - دون توقع - نسمة شبيهة بنسمات صبح من أبريل، أو من ضباب سبتمبر . فيشم عطرا ، ويتذوق نكهة ، ويشعر بأحاسيس رقيقة غامضة هنا أو هناك ، علي بشرته أو فى عينيه ، أو داخل فؤاده ، ثم يتذكر رويدا أنه لابد أن يكون هناك يوم ، أزرق دافيء ، أو بارد رمادى ، أو من أى نوع كان ، هذا اليوم قد استقرت ماهيته داخل نفسه ،

وظل عالقا به على هيئة ذكرى مدفونة ، ولم يكن يستطيع أن يضع هذا اليوم من أيام الربيع أو الشتاء فى موقعه من ماضيه الواقعى ، لم يكن يستطيع أن يسميه أو يحدد له تاريخا . ربما وقع أيام دراسته بالكلية ، أو لعله أن يكون ـ من يدرى - عندما لم يكن أكثر من طفل فى مهده ، إلا أن العطر كان هناك، كما كان يعلم أن شيئا ما يحيا فيه دون أن يستطيع التعرف عليه أو تعريفه أو تحديد هويته ، وقد يخيل إليه أحيانا أن تلك الذكريات قد ترجع إلى ماوراء الحياة الحاضرة ، فى وجود سابق ، وإن كانت هذه الفكرة تثير ابتسامة .

واكتشف « آنسلم » أشياء كثيرة فى تجولاته البائسة خلال أغوار الذاكرة . وجد أمورًا عديدة أثرت فيه واستولت عليه ، وكثير مما وجده أفزعه وروعه ، إلا أن شيئا واحدا لم يعثر عليه ، وهو مايعنيه اسم « آيريس » بالنسبه إليه . وفى عذاب بحثه الذى لم ينته إلى شىء، قصد إلى بيته القديم ذات مرة بغرض الكشف ، فشاهد الغابات والطرقات ، والممرات والأسوار، ووقف فى الحديقة العتيقة التى كان يرتع فيها أثناء صباه ، فأحس بالأمواج تتكسر على قلبه ، والماضى يطوقه كالحلم ، وعاد من هذه الرحلة حزينا صامتا ، وأعلن أنه مريض حتى يصد عن زيارته كل من يريد أن يراه .

إلا أن واحدا من هؤلاء الزوار أصر على الدخول ، وكان صديقه الذى لم يره منذ أن انتهت علاقته بآيريس . ووجد هذا الصديق آنسلم جالسا مشعث الشعر فى حجرة مكتبه الكئيبة .

فقال له : « انهض ، وتعال معى . آيريس تريد أن تراك » . فهب آنسلم واقفا على قدميه :

« آيريس ! ماذا حدث لها ؟ أوه ، أنا أعلم ، أنا أعلم ! »

قال صديقه : « أجل ، تعال معى . إنها توشك أن تموت . كانت مريضة منذ زمن طويل » .

وذهبا إلى آيريس التى كانت مضجعة على أريكة. كانت نحيلة خفيفة كطفل . وابتسمت ابتسامة وضاءة بعينين واسعتين ، وناولت يدها الخفيفة البيضاء لآنسلم فرقدت فى كفه كأنها زهرة ، وأضاء وجهها كأنما غمرته حالة من الوجد .

قالت : « آنسلم ، أأنت ساخط على ؟ لقد عهدت إليك بمهمة صعبة ، وأنا أرى أنك كنت مخلصا ، استمر فى البحث ، واصل ماكنت فيه حتى تجد ما تبحث عنه . كنت تعتقد أنك تبحث لحسابى ، ولكنك كنت تفعل من أجل نفسك ، هل أدركت ذلك ؟ » .

قال آنسلم : « اشتبهت فيه ، وأنا الآن أدركه ، إنها رحلة هائلة يا آيريس ، وكان من الممكن أن أرتد على أعقابى ، ولكننى لا أجد الآن مناصا من مواصلة الرحلة ، ولا أدرى ماذا سيكون مصيرى » . وحدقت فى أعماق عينيه الحزينتين ، وابتسمت مشجعة ، فانحنى على راحتها النحيلة ، وبكى فى صمت ، فابتلت يدها بدموعه .

قالت بصوت لم يكن يشبه إلا وهج الذاكرة : « ماذا سيكون مصيرك ؟ مصيرك هو شىء ينبغى ألا تسأل عنه . لقد سعيت إلى أشياء كثيرة فى حياتك . سعيت إلى المجد والسعادة والمعرفة ، وسعيت إلىَّ . أنا صغيرتك آيريس . لم يكن هذا كله سوى صور جميلة سرعان مافارقتك ، كما يجب أن أفارقك الآن . وكان الأمر معى مثلما كان معك . كل ماسعيت إليه استحال إلى صور حبيبة عزيزة ، ذبلت وذوت دائما ، والآن ، لم يعد لدى مزيد من

الصور ، ولا أسعى إلى أكثر من ذلك ، إننى عائدة إلى الوطن ، ولم يبق لى غير خطوة صغيرة أخطوها لكى أصبح فى موطنى الأصلى. وأنت أيضا يا آنسلم سوف تلحق بى هنالك ، وعندئذ لن ترتسم غضون جديدة على جبينك » .

كانت شديدة الشحوب بحيث صاح آنسلم يائسا : « آه ! انتظرى ياآيريس ، لاتذهبى الآن . اتركى لى علامة على أنك لن تختفى تماما . »

فأومأت برأسها ، وتناولت إناء للزهور كان بجانبها ، وأعطته سوسنة حاملة السيف زرقاء فى تمام نضارتها وازدهارها : « إليك هذه . خذ زهرتى ، السوسنة ، ولاتنس ، ابحث عنى . ابحث عن السوسنة . وعندئذ سوف تأتى إلى » .

وأمسك آنسلم - باكيا - بالسوسنة بين يديه ، واستأذن فى الانصراف دون أن يكف عن البكاء . وعندما استدعاه صديقه برسالة . عاد وساعد فى تزيين تابوت آيريس بالأزهار ، وشارك في إنزاله إلى الثرى .

وتناثرت حياته شظايا حواليه ، وبدا له من المحال أن يواصل غزل خيوطه ، فانصرف عن كل شىء ، وهجر وظيفته ومدينته ، واختفى من العالم . وكان يظهر لحظات قصيرة هنا أو هناك ، فكان يرى أحيانا فى مسقط رأسه منحنيا على سياج حديقة الزهور القديمة ، فإذا سأل الناس عنه وحاولوا مساعدته ، كان يختفى فلا يعثر له أحد على أثر .

وظلت السوسنة حاملة السيف عزيزة على نفسه ، وكلما وجد واحدة ، انحنى عليها واستغرق زمنا طويلا يتأمل كأسها ، ومن أعماقها الزرقاء كان يتصاعد إليه أريج وشعور بكل ماكان وماهو كائن ، حتى سار فى طريقه

حزينا ؛ لأنه لم يبلغ مايريد ، كان حاله أشبه بمن يستمع عند باب موارب ، ووراء هذا الباب يتنفس أكثر الأسرار سحرا ، وفى اللحظة التى أحس فيها بأن كل شىء سوف يتضح ويتحقق ، أغلق الباب ، وهبت ريح العالم الباردة على وحدته .

وفى أحلامه ، كانت أمه تتحدث إليه ، ولم يكن قد رأى وجهها وهيئتها قريبين هذا القرب وبهذا الوضوح منذ وقت طويل . وكذلك تحدثت إليه «آيريس » ، وعندما استيقظ كان ثمة صدى يتردد فى أذنيه ، وقد كرس له يوما كاملا من التفكير . ولم يكن له مكان دائم للإقامة ، بل كان يذرع البلاد كلها كالغريب ، ينام فى المنازل أو فى الغابات ، ويأكل الخبز أو القوت ، ويشرب النبيذ أو الندى العالق على أوراق الآجام ، ولكنه كان ناسيًا لهذا كله . وحسبه البعض مجنونا ، وظن آخرون أنه ساحر ، على حين خشيه البعض الآخر ، وضحك منه قوم آخرون ، وأحبه كثير من الناس . وقد اكتسب مهارات لم تكن له من قبل أبدا ، كأن يختلط بالأطفال ويشارك فى ألعابهم الغريبة ، أو يجرى أحاديث مع غصن مكسور أو حجر صغير . وكانت مواسم الشتاء والصيف تتسابق معه ، وظل ينظر داخل أقداح الزهور ، ويتأمل الغدران والبحيرات .

كان يحدث نفسه أحيانا قائلا : « صور ! كل شىء لايعدم أن يكون صورا »

ولكنه كان يشعر أن هناك ماهية داخل نفسه وليست صورة ، وهذا هو ماظل يتابعه ، وهذه الماهية المستقرة فى داخله كانت تتحدث أحيانا ، وكان صوتها هو صوت « آيريس » تارة ، وصوت أمه تارة أخرى ، وكان ذلك عزاء وأملا .

وصادفته عجائب كثيرة ، ولكنه لم يدهش لها . ومن أمثلة ذلك أنه كان يسير ذات يوم من أيام الشتاء خلال الجليد فى حقل مكشوف ، والثلج يتراكم على لحيته ، وهناك خرجت من الجليد سُوَيْقَةٌ رشيقة مدببة من زهور السوسن لا تحمل سوى زهرة واحدة جميلة ، فانحنى عليها وابتسم ، فقد أدرك الآن ماكانت « آيريس » تدفعه إلى تذكره المرة بعد الأخرى . وتعرف هنا على حلم طفولته حين شاهد بين الشرذمة الذهبية ذلك المعبر الأزرق الفاتح الذى تتخلله عروق لامعة ويؤدى إلى قلب الزهرة المستسر ، وعلم أن هذا هو ما كان يبحث عنه ، وأن هذا هو الماهية وليس صورة من الصور .

وعادت إليه التوقعات مرة أخرى ، وكانت الأحلام تهديه ، وذات مرة وجد كوخا ، وهناك قدم الأطفال اللبن إليه ، وبينما كان يلعب معهم ، قصوا عليه حكايات ، وأخبروه أن معجزة وقعت فى الغابة بالقرب من أكواخ الفحامين . فهناك شاهد الناس بوابة الروح وقد فتحت على مصراعيها ، وهى البوابة التى لاتفتح إلا مرة واحدة كل ألف سنة . وأصغى إليهم «آنسلم » وأطرق رأسه متقبلا تلك الصورة العزيزة ، ومضى فى سبيله . وعلى أجمة من آجام الحور غنى أمامه طائر ، له نبرة غريبة عذبة شبيهة بصوت « آيريس » الراحلة . وتابع الطائر ببصره وهو يحلق ويحط بعيدا عنه فى أعماق الغابة .

وعندما هبط الطائر صامتا واختفى ، توقف آنسلم ونظر حواليه . . . وجد نفسه واقفا فى واد عميق من وديان الغابة ، وكان الماء يجرى برفق تحت أوراق الشجر العريضة الخضراء ، وفيما عدا ذلك كان كل شىء صامتا ، وكأنه فى حالة توقع تام إلا أن الطائر واصل غناءه فى قلب آنسلم بذلك الصوت الحبيب ، وظل يحثه على السير حتى وقف أمام صخرة كستها

الطحالب ، وفى وسطها كان ثمة باب مفتوح يفضى بواسطة ممرين إلى جوف الجبل .

وأمام هذه الفجوة كان يجلس رجل عجوز ، لم يلبث أن نهض حين أبصر آنسلم يقترب ، وصاح : « أنت هناك . ارجع ! بوابة الروح ! ومن دخل منها لايرجع أبدا » .

ورفع آنسلم عينيه ، ونظر إلى المدخل الصخرى ، وهناك شاهد ممرا أزرق، يختفى متوغلا بعمق داخل الجبل ، وانتصبت أعمدة ذهبية متقاربة على الجانبين ، وكان الممر فى الداخل ، ينحدر إلى أسفل كأنما يؤدى إلى كأس زهرة هائلة .

وفى صدر آنسلم انبعثت أغنية الطائر فى وضوح وصفاء تام ، فخطا آنسلم متجاوزا الحارس ، واقتحم الفجوة ، وبين الأعمدة الذهبية سار متوغلا فى السر الأزرق الكامن فى الداخل كانت هذه « آيريس » التى ولج إلى قلبها ، وكانت هى السوسنة حاملة السيف فى حديقة أمه التى خطا فى رفق داخل قدحها الأزرق .

وفى أثناء اقترابه فى هدوء من الشفق الذهبى ، أصبحت الذاكرة كلها والمعرفة كلها فجأة طوع أمره ، وتحسس يده فوجدها صغيرة ناعمة ، وترددت أصوات الحب قريبة مألوفة لأذنيه ، وكان رنينها ، ووهج الأعمدة الذهبية شبيهين برنين كل شىء ووهجه فى ذلك الزمان البعيد الذى شهد ربيع طفولته .

والحلم الذى زاره وهو صبى صغير أصبح ملكا له مرة أخرى ، حلم اقتحامه لكأس السوسنة ، ومن ورائه كان عالم الصور بأسره يخطو هو أيضا وينزلق ويغوص فى السر الكامن وراء الصور جميعا .

وفى هدوء ، شرع آنسلم فى الغناء ، وانحدر فى رفق هابطا صوب موطنه .

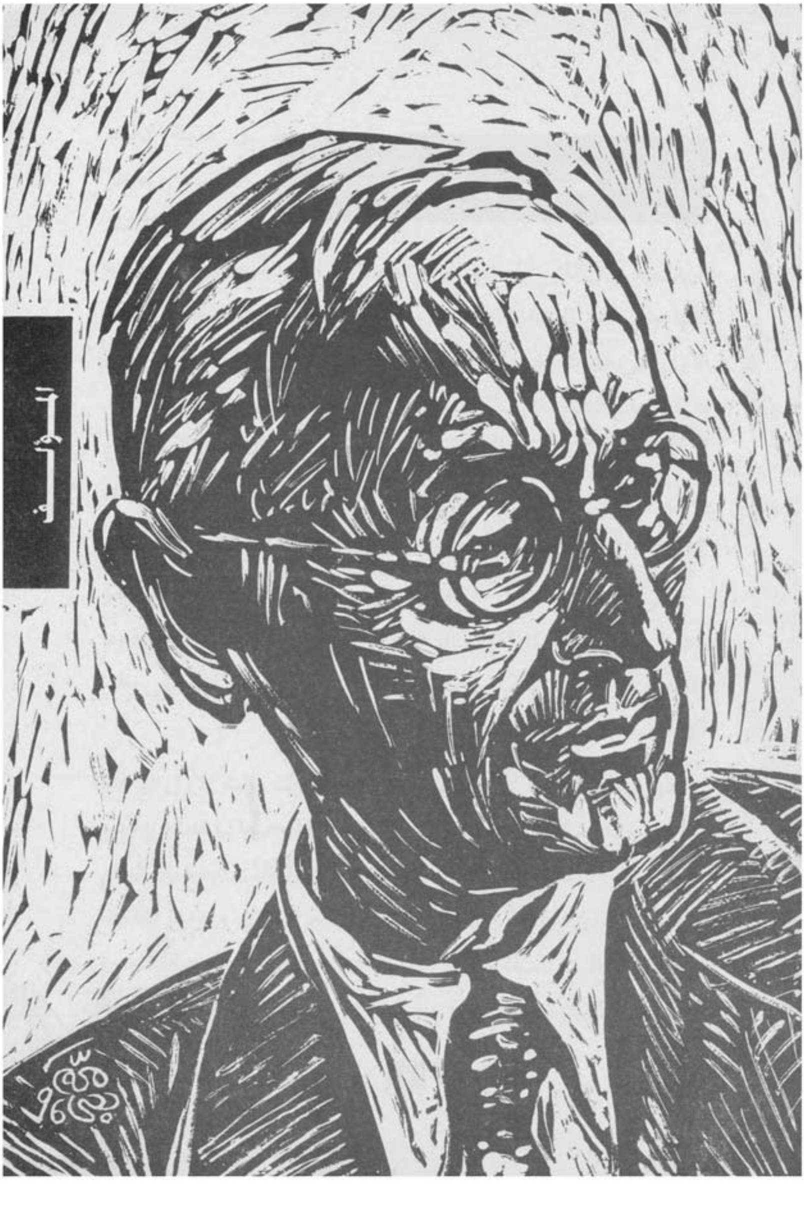

هيرمان هسة

فى مدينة كالف الألمانيــة وبجوار الســـوق ولـــد هيرمان هسة فى ثلثى أيام شهر يوليو عام ١٨٧٧ ، درس وتزوج فى المدينة ذاتها حتى انتقل إلى المدينة السويسرية الشهيرة برن قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى التى فجرت أحداثها المفجعة طاقته الأدبية الإبداعية ، رغم أنه كان قد قرر عدم التفرغ للأدب والكتابة ؛ لأنهما لا يقدران على مساندة شخص أو أسرة مساندة مادية فعالة بحيث لابد للأديب أو الكاتب من البحث عن عمل أو مهنة ، معتبرا أن الأدب والكتابة هما مجرد هواية ، وقد شجع هيرمان هسة على اتخاذ هذه القرار واعتناق هذا النظرية ثراء أسرته وثراؤه بالتالى . .

لكن عقدة تأصلت فى حياته أثرت فيما بعد على أدبه ، فقد كان يشعر بحرية تامة وحركة كاملة إلى أن تزوج ، ففرض عليه هذا الزواج قيودا والتزامات وعادات وتقاليد جعلته يشعر بفقدان الحرية ، وأنه أصبح يعطى أكثر مما يأخذ بعد أن كان يأخذ أكثر مما يعطى . .

هو - إذنْ - سويسرى من أصل ألمانى ، ظهرت روايته الأولى فى عام ١٩٠٥ بعنوان « كروجر » فأثارت انتباه القراء والنقاد جميعا بما فيها من تركيز على الأصالة الإنسانية ، وبما فيها من تجديد فى التناول الذى يجمع بين الواقع والخيال ، وبما فيها من أسلوب شاعرى ساحر وجميل ، وهى صفات ومواصفات ظلت لصيقة بهسة فى رواياته التالية جميعا وفى قصصه القصيرة أيضا . ثم ظهرت رواية « بيتر » عام ١٩٠٩ لتؤكد شهرته ورسوخه فى الحياة

الأدبية ، فقد أعلن النقاد أنهم ينتظرون من هسة الكثير ؛ لأنه يكتب بروح الهواية ، ولأنه لا ينتظر النشر والتوزيع والتقييم بقدر ما ينتظر استحسان النقاد وجمهور القراء . فى هذه الرواية استمر هسة فى مزج الواقع بالخيال مع اهتمام خاص بالطبيعة وبالحياة . وفى العام التالى أصدر هسة رواية بعنوان «جرترود» وبعد ثلاثة أعوام أصدر رواية بعنوان « روشالت » . والروايتان تتماديان فى عالم الروحانيات حلما بالفردوس المفقود والجنة الموعودة عن الموسيقا وعالم الموسيقا ، وهو العالم القادر على التحليق بمن يقترب منه عازفا آو مؤلفا أو مستمعا ومستمتعا . .

أما الرواية التى عبر فيها هسة عن عبثية الحرب وما تسببه من مآس بلا سبب وبدون مبرر ولا فوائد ولا نتائج ، فهى رواية « اميل سنكلير » التى ظهرت عم ١٩١٩ كإدانة قوية للحرب وصرخة مدوية فى وجه مشعليها . .

ويلاحظ أن هسة كان يهتم حتى الآن بأن يضع لرواياته أسماء أبطاله أو شخصياته الرئيسية التى تدور حولها الأحداث أو التى تصنع من حولها الأحداث . .

ويصل هسة إلى ذروة المزج بين الواقع والخيال أو بين الإنسان والطبيعة فى روايته « هارتا » التى ظهرت عام ١٩٢٢ . .

ولأول مرة يستخدم هسة اسما لإحدى رواياته ، وهى « الذئاب » وإن كان يقصد فى الحقيقة إنسان هذا الزمان الذى أصبح حيوانا فى تصرفاته وسلوكه بعد فقد كل القيم الإنسانية . .

ويعود هسة إلى أسماء أبطاله فى روايته « جولد موند » التى ظهرت عام

١٩٣٠ لتمزج هذه المرة بين الرغبات الحسية والمشاعر العاطفية أو بين المادة والروح ، تجسيدا للفلسفات التى سادت بعد الحرب العالمية الأولى وقبيل الحرب العالمية الثانية التى لاحت نذرها فى الأفق . .

أما الرواية التى عبر بها هسة عن الحرب العالمية الثانية مثلما عبرت روايته «سنكلير » عن الحرب العالمية الأولى فهى رواية « اللآلىء الزجاجية » التى ظهرت عام ١٩٤٥ والتى تعد أنضج رواياته جميعا . وقد استبدل فيها بالبطل الموسيقى أو المحب للموسيقى البَطَلَ الرياضى المحب للرياضة والذى يصطدم بالواقع ، فيهرب إلى الواقع ، سواء كان هو الخيال أو الحلم أو الأوهام، وكأن هذه الرواية هى المعادل الموضوعى للحرب الشرسة المدمرة، اللامعقولة ، والتى أفرزت بعد ذلك أدب العبث أو اللامعقول . .

وقد كتب هيرمان هسة عددا من القصص القصيرة فى مراحل حياته الأدبية المختلفة ، فجاءت قصصا أقرب إلى الروايات القصيرة ؛ نظرا لطولها الزائد عن أحجام القصص القصيرة المتعارف عليها . وهى تتناول أيضا شخصيات خيالية تعيش أحلاما غريبة وتنتقل فى أماكن عجيبة .

وبعد أن أتم عامه الخامس والثمانين رحل هيرمان هسة بعد حوالى شهر ، فقد توفى فى التاسع من أغسطس عام ١٩٦٢ . .

ونصل إلى مجموعته القصصية المختارة خصيصا لهذه السلسلة والتى اخترنا لها عنوانًا شاملا هو عنوان إحدى القصص وهو «أحلام الناى » . .

تضم المجموعة سبع قصص قصيرة طويلة تتراوح بين عشر صفحات وأربعين صفحة . .

تتناول القصة الأولى « أحلام الناى » موضوعا خياليا يصلح للصغار

والكبار ، فالبطل طفل صغير يتعامل مع الكبار من خلال نصائح والده العجوز ، وهو يحب النفخ فى الناى والتنقل فى الغابات والمروج والأنهار ، يلتقى بفتاة رائعة الجمال ، يغنى لها وتطعمه ، ولكنهما يفترقان وسط أزاهير العشب والجبال الخضر . .

وتتناول القصة الثانية « الشاعر » شخصية الفتى المحب للشعر الذى يلقى أشعاره على ضفاف البحر الأصفر ، ويستمتع بمشاهدة ابتهاج الناس فى مهرجاناتهم الخاصة ، ومع هذا يترك مدينته وخطيبته لينطلق إلى آفاق أرحب من أجل تعلم الشعر . وبالفعل يلتقى برجل عجوز يقبع فى كوخه الكائن على شاطىء النهر ، فيعلمه أشعارا تجعله يمسح من ذاكرته كل الأشعار التى قرضها من قبل ، كما تعلم منه العزف على العود والغناء . . يعود الفتى إلى مدينته وخطيبته وأسرته ، ولكنه لا يتحمل البقاء ؛ فإن نداء الشعر والحنين إلى الأستاذ يعجلان بعودته مرة أخرى إلى رحلته الخيالية التى لا يدرى كم من السنوات مرت عليه وهو إلى جوار الأستاذ الذى اختفى فجأة ؛ ليعود الفتى وقد أصبح شيخا دون أن يدرى . .

ونتناول القصة الثالثة « الممر الصعب » الطبيعة الخلابة بمناظرها البديعة وسط الشمس الساطعة وسلسلة الجبال العالية ، والجداول ، والأعشاب والسماء الزرقاء ، والوادى الخصيب ، والغدير الأسود ، والصخور الصلبة ، ووسط كل هذا يتنقل الفتى وبصحبته المرشد أو الدليل وهما يتقدمان نحو الممر الصعب فى رحلة استكشافية خيالية مليئة بالمخاطر والغرائب . .

وتتناول القصة الرابعة « أنباء عجيبة من نجم آخر » موضوعا خياليا آخر ، فقد ضرب زلزال مروع المنطقة الجنوبية من الكوكب متسببا فى كارثة أدت إلى

موت الكثيرين من البشر ، وأطلقت النداءات تطلب المعونة من المقاطعات المجاورة ، وبالفعل وصلت الأطعمة والثياب والعربات والخيول والأخشاب والمواد ، أما نقص الزهور فهو الذى لم يعوض ؛ لعدم توافره فى المناطق المجاورة ، الأمر الذى يتطلب الذهاب بعيدا لجلب الزهور ، فهى ضرورية فى مراسم دفن الموتى وبغيرها يشعر الأحياء أن أمواتهم لم يلقوا التكريم الواجب . ويتم انتخاب أحد الفتيان الأقوياء الأذكياء ؛ ليقوم برحلته متوجها إلى ملك البلاد طلبا للزهور ، وانطلق الفتى بجواده ، وشاهد طائرًا ضخما تبادل معه الحوار ثم حمله إلى حيث يريد . وبعد طيران طويل حط الطائر على حافة غابة ، وأنزل الفتى مشيرا إليه حيث ينبغى أن يذهب، ووعده بانتظاره بعد مقابلة الملك وإنهاء مهمته . وصل الفتى إلى مقر الملك، ولكنه فوجىء بأن المقاطعة أصيبت بكارثة أبشع من كارثة الزلزال بسبب حرب عاتية راح ضحيتها الآلاف الذين يصعب جمع أشلائهم ، فأدرك أن مطلب الزهور فيه رفاهية زائدة أمام الكارثة التى يلمسها بنفسه كما لمسها فى عينى الملك عندما سمح له بمقابلته ، وعاد الفتى إلى حافة الغابة؛ ليجد الطائر فى انتظاره ، يحمله الطائر بالفعل ويعيده إلى المعبد الصغير القريب من مقاطعته ، وهناك يجد جواده عائدا تسبقه العربات والمركبات التى تحمل أجمل زهور الشمال التى وعده بها الملك مستجيبا إلى طلبه ، رغم الكارثة التى تعيشها البلاد وهى تعانى من ويلات الحرب . وتم بالفعل دفن الموتى وسط الزهور ، والفتى لا يستطيع أن يقرر : هل كان فى حلم أم أن الحقيقة هى التى عاشها بكل أحداثها الغريبة العجيبة فى كوكبه أو فى النجم الآخر . .

وتتناول القصة الخامسة « حلم مبسلسل » حلما آخر أو حقيقة أخرى

أقرب إلى الخيال ، فالفتى لا يصدق ما يقال عن امرأة جميلة رقيقة ، تتهم بأنها خاطئة . فهو يلتقى بها ويحملها عبر الصخور ووسط الأمواج تحت الأمطار فى مواجهة العاصفة بين الأشجار العتيقة ، ويلتقى بها وأصداء السيمفونيات تصدح وموسيقا شوبرت تتعالى وتختفى فجأة ، ترحل أو لا ترحل وهو يقف عبر سلالم صخرية كأنما يقبع خلف زجاج شفاف . ويتذكر الفتى أيام المدرسة والكتب المدرسية وحمام السباحة وأشعار شيللر ، وأخذ يردد لحن فولف لهذه الأشعار « ماذا تعرفين يا أعالى الأشجار المظلمة عن جمال الأزمنة القديمة ، أرض الوطن الممتدة عبر الجبال . . ما أبعدك عنا الآن ، ما أبعدك ! » . .

وتتناول القصة السادسة « أغسطس » أو الطفل الذى ولد بعد رحيل أبيه تاركا الأم وحيدة لا يعطف عليها وهى فى وهنها سوى امرأة عجوز ورجل طيب . ونتيجة لرعايتهما لها تصورت أنها تعيش حلما وليس حقيقة . وشب الطفل متميزا بجمال رائع وجسم قوى ، وقد عمده الرجل الطيب كأب روحى له خاصة بعد وفاة أمة التى خافت على ابنها من دعوة التعميد التى صحت وهى أن يحبه الناس رجالا ونساء . وبالفعل أحبته امرأة عجوز ثرية ظلت تنفق عليه وعلى رحلاته العديدة ، ومع هذا لم يكتف بهذه السيدة بل كان يستجيب لكل امرأة تعرض عليه حبها وتبدى إعجابها بوسامته ، حتى الرجال كانوا يضعونه فى مكانة رفيعة ؛ نتيجة حبهم لشخصه ، وحاول فى إحدى رحلاته البحرية أن يغازل زوجة سفير شابة ، ولكنها رفضت أسلوبه وإصراره غير اللائق ، بعدها تبدل حظه ، وكف الناس عن حبهم له وإعجابهم به ، وهو ما كانت تخشى أمه منه قبل رحيلها ، أن يستغل الدعاء استغلالا سيئا فينقلب ضده . وأدى به الأمر إلى محاولة الانتحار لولا الرجل

الطيب الذى أنقذه ، رغم أنه لم يعد يهتم به أو يقوم بزيارته ، ويمرض أغسطس ويروح فى غيبوبة دون أن يسأل عنه أحد إلا الرجل الطيب . .

وتتناول القصة السابعة والأخيرة « زهرة السوسن » حب الفتى الصغير لهذه الزهرة التى تدعى حاملة السيف ، وكان الفتى يستطيع أن يتحدث إلى الفراشات والحصى والخنافس والسحالى والطيور والنباتات ، ومع هذا كان محبا للقراءة نهما فى الاطلاع دءوبا فى دراسته ، سواء بالمدرسة أو بالجامعة . . كما كان يقوم برحلات بحرية إلى بلاد بعيدة ظن هو نفسه أنه يحلم وأن أسفاره هذه ليست حقيقة ، وأصبح أستاذًا فى مادته يحترمه زملاؤه وتلاميذه على السواء . ومع هذا لم يكن يشعر أبدا بالسعادة ، فلم يستطع أن يستقر مع واحدة من اللاتى عرفهن فى حياته ، كان يريد أن يتزوج ، ووقع اختياره على فتاة تجاوره ، ولكنها كانت مولعة بالزهور وليس بالرجال ، فتبرم الأستاذ وأصبح شاردا غريب الأطوار ، يتسكع فى الشوارع ، ويرتدى سترة رثة ويسرح أثناء إلقاء المحاضرات أمام التلاميذ الذين لاحظوا التغير الذى طرأ عليه . وعاش حياة الأحلام بعيدا عن الحقيقة . .

من الملاحظ أن عناصر مشتركة تتكرر بإلحاح فى كل القصص مثل الطبيعة بكل مكوناتها ، والمساحات الشاسعة ، والفراغ اللانهائى ، والزهور والطيور والخيول والغابات ، والحدائق والبحار والأنهار . ومن العناصر المشتركة أيضا إحساس الشخصيات أنها تعيش الأحلام ، وأن هذه الأحلام تختلط بالواقع والحقيقة . .

كما يلاحظ أسلوب هسة الشاعرى القريب تماما من الشعر ، ولا غرابة إذا عرفنا أنه بدأ شاعرا ، وأنه كتب أشعارا رقيقة عن موطنه الأصلى قبل أن يشرع فى كتابة الرواية والقصة .

96

محمد فؤاد عطا الله

● تخرج فى كلية الآداب - جامعة القاهرة - قسم اللغة الفرنسية وآدابها .

● عمل منذ تخرجه بوكالة أنباء الشرق الأوسط محرراً بالقسم الفرنسى ثم رئيساً للقسم .

● أعد وقدم نشرة الأخبار بالإذاعة والتليفزيون .

● شارك فى العديد من المؤتمرات الدولية والإسلامية مترجمًا تحريرياً .

● عمل برئاسة الجمهورية مترجماً فورياً .

● عمل بإذاعة الرياض الأوروبية ، ووكالة الأنباء البحرينية ، ومنظمة الوحدة الإفريقية بدار السلام ، وجامعة الدول العربية بكندا .

● سكرتير عام مساعد جمعية محمد حسين هيكل الثقافية .

● عضو نقابة الصحفيين .

● عضو فريق التمثيل العربى باللغة الفرنسية .

● شارك بالكتابة والترجمة فى مجلات الفيصل وزينة وكوكب الشرق ودراسات أجنبية واليونسكو .

صدر من هذه السلسلة

الا أخلاقى .. أندريه جيد

العجوز والبحر .. أرنست هيمنجواى

الأم الكبيرة ..جابريل جارسيا ماركيز

صحراء الحب .. فرانسوا مورياك

شعب يوليو .. نادين جورديمر

أمير الذباب .. وليام جولدينج

أنطوانيت .. رومان رولان

الغريب ..ألبيركامى

أحلام الناى ..هيرمان هسّه

الأم .. جراتسيا ديليدا

ولم يقل كلمة .. هاينرش بل

مراعى الفردوس .. جون شتاينبك

مغامرات نلز العجيب .. سلمى لاجرلوف

رياح الشرق ورياح الغرب .. بيرل باك

الآلهة عطشى .. أناتول فرانس

الدار المصرية اللبنانية

تصميم ورسوم : محمد حجى

6 222006 300708